العيـاشي ثابت

صباغـة الحـمير

رواية

صباغة الحمير

رواية

الكتاب : - **صباغة الحمير – (رواية)**
المؤلف : **العياشي ثابت**
الطبعة : **الأولى - 2023**
المطبعة **: النعومية - 0643006161**
تصميم الغلاف: **رودينة المعطاوي**
رقم الإيداع القانوني: **2023MO3101**
ردمك : **978-9920-41-998-7**

العياشي ثابت

صباغة الحمير

رواية

- معرفة القيم هي معرفة معنى السوق...

" تشارلز داو"

- اشتر نفسك، فالسوق قائمة، والثمن موجود...

"ابن القيم الجوزية"

- يتحكم السوق في كل شيء، لكن السوق ليس له قلب...

"أنيتا روديك"

- يمكن شراء الدماغ بسهولة، لكن القلب لا يأتي إلى السوق أبداً...

" جيمس راسل لويل"

- عندما يستباح الوطن، تصبح الدنيا سوق نخاسة، والإنسان أرخص من تراب الأرض...

"سامية أحمد"

..." لكي تكون مواطنا صالحا، عليك أن تعشق الأسواق في بلدي"... هكذا كان يردد جدي رحمة الله عليه، بل هكذا كان يفكر... لم تكن وصيتَه الوحيدة، بل كان يوصي والدي بضرورة الحفاظ على الخيمة... وحين كنت أجوب ممرات السوق منفردا، تتجاذبني رائحة الإسفنج ورائحة السمك المقلي، ورائحة الشواء والشاي المنعنع ، وروائح شتى بين خيام البزازين والخضارين والصفارين واللحامين والحلاقين والإسكافيين والحدادين وغيرهم... وتتوزعني أصوات أبواق وحناجر متعددة، وصيحات أغنام وأبقار وحمير وديكة وحمائم وعصافير وغيرها... وتشدني القفشات والصرخات والشطحات والنعرات والخصومات والملاطفات من كل اتفاق أو شتات، كنت أتحسس معنى العبارة التي كان يرددها جدي: "لكي تكون مواطنا صالحا، عليك أن تعشق الأسواق في بلدي"... الاختلاف والتنوع وصراع الأضداد سر من أسرار هذا الكون...

رنات الجرس النحاسي الأصفر تشنف أسماع المرتادين لسوق "الثلاث"، تزيدها قفشات العربي السقاء بهاء وطرافة، حين يصب جام غضبه المزيف على عباس، يعيِّره بخيمته القديمة قائلا:

-" لو نطقت هذه الخيمة يا "عبيبيس"، لدعت عليك بالويل والثبور وعظائم الأمور، فقد اخلولقت من كل وجه وحاشية، وتآكلت منها الأسباب والأوتاد، حتى عز على صاحبها تذكّر تاريخ الميلاد..."

يشمئز عباس من قهقهات العابثين والشامتين دون أن يظهر ذلك، ويشيح بوجهه عن المكان كمن لا يسمع شيئا مما يدور، ثم يحول نظراته بين الباعة الرابضين والجائلين، وقد وجدوا في مزاح العربي السقاء فرصة للانقضاض على خيمة عباس القديمة: انبرى بائع الحبال المفتولة وهو يمسك بيديه قنبا من الحجم الصغير، يهش بها في كل اتجاه، ويحرك رأسه بشكل دائري كناية عن عدم الرضا من خيمة عباس وهو يقول:

-"كان يجدر بك يا عباس أن تبيعها في المزاد العلني، فمكانها بين التحف العجيبة في متحف مهجور..."

وبين من يدعي حرص عباس على الحفاظ عليها وفاء لروح والده المرحوم، و من يَسِمُه بالبخل والتقتير، ومن يعتبر ذلك أمرا عاديا لا يستدعي كل تلك الجلبة والهذر، كان عباس منهمكا في ترتيب ما بداخل الخيمة من سلع زهيدة، يسوي الحصير في أرجائها الضيقة، في وقت كان الآخرون ينصرفون تباعا إلى ترتيب خيامهم... شرع في استقبال الزبائن، وأغلبهم من النساء. فقد كان إلى جوار المتاجرة في مادتي السكر والشاي بالتقسيط لمرتادي المقاهي الشعبية بالسوق، يمتهن جبر الكسور والتواءات المفاصل وأشياء أخرى، يستعمل في ذلك أدواته الخاصة... وتخيلوا أن ينطق بائع الخردة على رؤوس الأشهاد، فيزعم أن عمه قد أصيب بكسر مزدوج، وتحول بين مستشفيات وعيادات خاصة، كلفته الكثير، ولم يُجبر كسره إلا بعد أن زار خيمة عباس. ثم تردف والدته القابعة في أقصى الخيمة الكبيرة قائلة:

-"ايه يا وليدي، عباس يدو بحال رحمة الله، تشوف خيمتو تحكَريه"...

هل كان عباس يحتفظ بتلك الخيمة على قدمها وفاء لوصية والده؟ أو كان بذلك يتقي شر العين والحسد؟ أو كان، كما يدعي، يشم فيها رائحة المرحوم؟ أو كان يعدّها مجلبة لحسن الطالع...؟

والد عباس كان يستعملها متجرا لبيع قوالب السكر بُعيد الاستقلال، يجول بها عددا من أسواق دكالة وعبدة والشاوية، يتخذ من عربته وسيلة نقل دائمة، رَكوبا وحمولة، وأهم الحمولة خيمته المطوية، وأكياس السكر المربوطة بالقنب المفتول، يحط الرحال بالأسواق، ويعرض سلعته على خشبة مبسوطة فوق صندوقين خشبيين، اقتناهما من خضار مفلس. يومها كانت قوالب السكر ذات قيمة اجتماعية علاوة على قيمتها الاقتصادية والغذائية، فقد كانت وجبة الخبز والشاي هي الغالبة على قوت أهل البلد... وكان ابنه الصغير عباس آنذاك السند والمدد... غضا غريرا يملأ اللهو تجاويف دماغه الأدرد، يبحث عن الكلمات حتى وهو يتفوه بأبسط الأشياء، لم يتلق من التعليم غير ما تلقاه في القسم التحضيري، ثم غادر المدرسة بعدها خائفا مذعورا مشتكيا من قساوة معلمه، بعد أن مزق دفاتره إربا إربا، ومثّل بقراءة "بوكماخ" شر تمثيل وقد مزقها تمزيقا، وتطايرت أوراقها بين الأطفال العابثين، فكان كل واحد يحمل منها ورقة أو ورقتين، ويقرأ بصوت عال: "بابا، بوبي، ببابي" والآخر: " كناري ناني مات، ناني تبكي كناريها"...وحين لمح فقيه المسيد آنذاك تلك الأوراق المتناثرة، استشاط غضبا في وجه ابن عباس وقال:

-"لو تعلم أيها الأبله أن تلك التلاوة كانت الأساس المتين لتخرج آلاف الأطر والكفاءات... ". هكذا نشأ عباس الإبن، بداية خمسينيات القرن العشرين، وعايش أحداثا جساما، لم يكن يعي جسامتها، لكنها ظلت في مخيلته مرتبطة

بما كان يلاحظه من ردات أفعال وأقوال الكبار آنذاك، وأثرها في الأسواق؛ عايش نفي الملك محمد الخامس وأسرته إلى جزيرة كورسيكا، وما صاحبها من قهر وبطش بأجساد وأرواح المقاومين، ونهب لخيرات الكادحين، ومجاعات تردد صداها في أمعاء الصغار واليافعين، وأجهد نفسه كي يرى صورة الملك في القمر دون جدوى... وعايش بعدها فرحة العودة والاستقلال، وتجدد الأنفاس والآمال، وبداية عهد جديد ترقّبه الناس بحسن الظن والمآل... مات الملك، وعاش الملك، وتولى الحسن الثاني عرش المملكة، فتعاقبت الحكومات الواحدة بعد الأخرى، وتعاقبت الانقلابات الفاشلة ضد الملك الراحل في مطلع السبعينيات، لكن وهج الأسواق لم ينقطع يوما، بل كان عددها في تزايد مستمر، تماما كما كان عداد الساكنة لا يتوقف أبدا...لم ينس عباس لحظةً حَزَم فيها والده حقائبه، وأخبر العائلة بعزمه على الذهاب متطوعا ضمن أفواج المسيرة الخضراء، بكى خوفا على والده، لكنه سرعان ما استساغ الأمر، وبات يمني النفس بالنصر والرجوع الآمن. وكذلك كان. مرت السنوات على نغمات: "العيون عينيا والساقية الحمرا ليا والواد وادي" والتفت القلوب حول القضية الوطنية، خصوصا بعد بروز مناورات الخصوم المعادية للوحدة الترابية... لم ينتبه عباس وأمثاله في البراري والأصقاع إلى صعوبة الأوضاع إلا في بداية الثمانينيات، حيث حلت بالبلاد سنوات عجاف متتاليات، اضطر معها الناس إلى التقشف، فغابت أضحية العيد عاما، وغابت بعض السلع من الأسواق بين الفينة والأخرى، وكان أبرزها قالب السكر، واكتفى الناس بما وجدوا... كانت مرحلة عصيبة، تراجع خلالها وبعدها بسنوات ذلك الوهج والحماس الذي ألفه عباس في الأسواق... واستمرت رحلة حياته الطويلة مع الأحداث والتحولات

التي أصبح صداها يصل الأسماع بفضل انتشار التلفزيون في المدن والبوادي، لكن أبرز ما كان يثير حفيظته هي تلك السجالات التي لا تنتهي إلا بفرز صناديق الاقتراع، ثم تخبو جذوتها لتنطلق بعد أعوام أخرى... كان عباس حريصا على حضور الأسواق المعتادة جميعها، لا يمنعه عنها إلا تزامنها مع يوم عيد... ولذلك لم ينس قط حزنه الكبير الذي ارتبط بصبيحة سوق لم يستطع التوجه إليها كعادته حين علم الجميع بوفاة الحسن الثاني. يذكر المشهد بكثير من الدقة والتفصيل، استغرب الناس أن تقتصر برامج التلفزة الرسمية على إذاعة القرآن الكريم، ليظهر بعدها المذيع بصوت ممزوج بالبكاء متلعثما: أيها المواطنون أيتها المواطنات، صاحب الجلالة يخاطبكم. ثم يظهر الملك الجديد قائلا:

"... أنعي إلى الشعب المغربي نبأ وفاة قائد عظيم..."

هكذا استمرت رحلة عباس، ليعاصر ثالث الملوك، بنفس العزم والإصرار، لا يقدر على ترك الأسواق ، إذ بات يتنفس هواءها ليعيش، كما تتنفس السمكة في الماء... قد يبيت متعبا مريضا، تحدثه هواجسه بعدم الذهاب إلى سوق ما، لكنه سرعان ما يستفيق على صيحة ديك، ثم لا يشعر إلا وقد سلك طريقه صوب السوق...

كان منذ صغره شديد الولع بالحلقات الفرجوية بالأسواق، يتحول بينها في خفة ونشاط، قبل أن يعود إلى خيمة والده، وقد هيأ نفسه لعتاب متكرر، تعوّد أن يسمعه في كل الأسواق، حتى بات عنده مثل زعيق الأبواق... لم ينس عباس،ككل الأهالي، فرجة "مولاي السلطان" التي كانت بحق مثار إعجاب أهل دكالة، إذ باتوا يتحاكون قصتها في المجامع والمناسبات:

"تنفَضّ رحبة البيض والدجاج البلدي على هوامش السوق، يغادرها عمر الصعلوك ثم يدلف من الباب الخلفي، فيتناهى إلى الأسماع صوته المبحوح، يصرخ ويتلوى مثل راقصة الباليه، وعلى محياه ترتسم حيرة ورغبة في البكاء، ينادي في الناس قائلا: يا للعار، لقد فرت العروس مني هذا الصباح، وتركتني وحيدا، أجتر مرارة الفقد وقسوة الشماتة في عيون الأعداء. أترضون لي ذلك؟ أترضون ذلك لابن قبيلتكم؟ ثم يبدأ في التنقل بين خيام الخضارين والجزارين وباعة الفواكه الجافة والطازجة وباعة الحمص والفول وباعة السمك المقلي والخبز الكبير وغيرهم من الحرفيين... يسألهم عن العروس الهاربة مرددا: "شكون شاف المسخوطة ديال مرتي؟ واش اعباد الله هاذي عروسة؟ " ثم يبدأ في تعداد محاسنها ومفاتنها، قبل أن تكثر تعاليق المارة والباعة، فيكفهر وجهه، وينقلب المدح هجاء، فيصب جام غضبه على العروس وعلى نساء العالمين... وتتعالى القهقهات بين المتفرجين، بين من يشير عليه بالبحث عنها في خمارة الفيلاج، ومن يرشده للبحث عنها في الإذاعة، ومن يشير إلى أتان مربوطة فيقول: أليست هذه هي عروسك أيها الصعلوك؟ وفي رحبة البهائم تزداد الفرجة حماسا بين النعاج ، فيستشيط الصعلوك حنقا، ويكيل للجميع وابلا من السباب المزيف، قبل أن يمد يده ليجمع من المتحلقين ما تيسر من دراهم، إذ كان يسألهم مالا، يعينه في البحث عن عروسه المزعومة. كانت تلك طريقته في إشعال فتيل الحلقات الفرجوية بالسوق ، وجمع ما يعينه على قضاء مآربه واحتياجاته من السوق، حتى أصبح حديث القبائل المجاورة، فباتوا

يستلطفون فرجته المتكررة، التي تنسيهم عناء التنقل إلى السوق باكرا، وعناء الأحمال الثقال، بل كانوا يفتقدون فرجة "مولاي السلطان" كلما تغيب لعذر طارىء..."

سي عبد القادر، أخ عباس من أبيه، كان حافظا لكتاب الله، لا يبرح الكُتاب إلا يوم السوق وسويعات لأداء صلاة الجمعة، حيث يصاحب الإمام في أداء الطقوس، بل يسبقه في قراءة القرآن مع الجماعة، وتلاوة ما تيسر منه منفردا ومُجوّدا ثم يكون ثالث المؤذنين لصلاة الجمعة، علاوة على الإقامة والتسميع ثم الختم بالدعاء دبر الصلاة... كان يجد في خيمة أخيه مكانا للاستراحة والترويح عن النفس، وعباس يكرم وفادته بطلب صينية شاي من المقهى المجاور، بينما يأتيه بعض الأهالي بخبز السوق المنفوخ أو خلطة من الحمص والفول... لم يكن سي عبد القادر وهو يغادر الخيمة المنصوبة يبخل على أخيه بدعوات الخير التي تطرد نحس الأبواق والأسواق وتجلب البركة ...

وحين ينصرف إلى حال سبيله، كان عباس يتنهد ملتفتا إلى جلسائه قائلا:

" - ايه يا الدنيا لّي يثيق فيك..." تنغرز العيون في وجهه متطلعة إلى أصل الحكاية، ويحصل أن أكون واحدا منهم، فيعرّج كعادته على أيام الصبا...

ألتفت بداخلي إلى الكاتب الذي كان يريد إتمام حكاية عباس مع خيمته، أتساءل في قرارة نفسي لماذا يُقبل الناس على السوق بالحديث عما هو خارج السوق؟ فينهرني راوي الرواة ليجبرني على الصمت قليلا بالقول:"ادخل سوق راسك خلي الرجل يعاود"... ثم يواصل عباس: " الصباح لله" يسمعها المجاورون فتتقطب جباههم، ويلتفتون في كل اتجاه لرؤية الوجه

المشؤوم، وجه "عبد السلام الخلالصي"، صاحب المحفظة الجلدية التي يدس فيها دراهم المكوس، فكأني به "بنك صنك"، رجل بدين، ذو بطن منتفخة كأنها بالونة تداريب رياضية، يميل وهو يمشي جهة اليسار بسبب ألم مزمن في ركبتيه، عيناه تدوران في رأسه في كل اتجاه، ولسانه قلم بَراهُ خطاط ماهر، تسمع صريره من مسافة يسيرة، تنهال عليه التعاليق من كل ناحية، فتجده صامتا حينا ومجيبا بكل ثقة وهدوء حينا آخر، فهو مطمئن للحصول على الجبايات طوعا أو كرها ... يشمئز الباعة من قدومه في ساعات الصباح، ويرون في طلته إشارة نحس وسوء طالع، يتطلعون في صباح السوق إلى أول زبون، يستفتحون منه، ويستبشرون بيوم مبروك. لكنهم لا يجدون بدا من أداء الواجب، وإلا تعرضوا لغضب الخلالصي، فيصبحون مثار استدعاء من خليفة القائد الذي يتخذ من السوق مكانا خاصا، يتولى فيه فض النزاعات وتنظيم السوق... وعلى خوفهم، كانوا يغمزون من قناته بكلمات لا يفهمها إلا جيرانهم من الباعة، وعلى فهمه، لم يكن يلقي لها بالا... كان أعز ما لديه أن يبسط يده ويقبض على الدراهم ثم يغور...

يصل صهر عباس متأخرا، كان يدعى "حيمود"، لكنهم يلقبونه بالشيطان... يجلس أمام خيمة عباس، في الركن الأيسر، يبسط منديلا صغيرا، وينشر فوقه "شقوف السبسي" يبيعها لعشاق نبتة الكيف. يتأبط أداة السبسي، ينظر يمينا وشمالا ثم يخرج ربطة الكيف من جيب سرواله، ويشعل عود الثقاب بخفة ورشاقة، يمج دخان السبسي، ثم يناوله لزائر غريب بكل

أريحية... وإذ يزعجه أهل الجوار، يستشيط غضبا، يزبد ويرغي، ثم ينهال قدحا على السوق بلكنة غير مفهومة: " مثلكم مثل سوقكم أيها الأوغاد، تبدؤون برحبة الحمير والبغال، فهي تسبق السوق بليلة كاملة... كيف تجعلون الحمير والبغال في المقدمة؟ " عشية كل سوق، تتقاطر البغال والحمير على الساحة الفسيحة، يكثر الهرج والمرج واللغط الماجن، ويتوالى ركوب الدواب لاختبار سلوكها وقوتها وقدرتها على التحمل... يدقق البدو في الدواب وفي كل شيء، بل يشكون في كل شيء، ويدارون شكوكهم بابتسامة مفتعلة وضحكة ممزقة وهم يسردون كل مرة حكاية "صباغة الحمير"، ثم يحكيها أحدهم للآخرين للمرة الألف، لا يسأمون من تكرارها، بل يضحكون في نهاية القصة أو يتضاحكون، ومنهم من يستنكر ذلك متأففا...

سأعيد حكايتها، وليخبط راوي الرواة دماغه في أقسى حيطان السوق المثقوبة:

أراد الرداد، وهو صديق لعباس، أن يستبدل حمارته بحمارة أخرى أصغر سنا وأكثر حيوية وقدرة على التحمل، فباعها لأحدهم، ثم حدّث نفسه بالرجوع في السوق الموالي لشراء أتان جديدة. ولما حضر في الموعد المرغوب، تهلل وجهه حين رأى من بعيد وقفة أتان مليحة، ذات شعر أملس وحركة خفيفة، تحرك أذنيها في كل اتجاه، وتسرع متى ركبها صاحبها. فقرر أن يشتريها، فأضاف إلى ثمن البيع ربعه، وقاد الحمارة إلى منزله بعد قضاء مآربه. وهو يعود إلى البيت راكبا حمارته الجديدة، استقبلته زوجته بالباب مباركة، أفرغت

حمولة الأتان، وقبل أن تطلب من زوجها أن يدخلها إلى الإسطبل، لاحظت أن الحمارة قد قصدت مكان الحمارة القديمة، فتساءلت كيف يمكن لأتان غريبة عن المنزل أن تعرف مكانها في الاسطبل... واستغرب زوجها الأمر كذلك... تبعاها إلى الإسطبل، فجلست في مكانها المعتاد. دققت المرأة النظر، فأقسمت بالله أن زوجها كان ضحية "صباغة ماهرة..."، انهار المسكين جاثيا على ركبتيه، فقد تعرض لأكبر عملية نصب في حياته: لقد باعه الخبثاء حمارته بعد أن بدلوا تسريحة شعرها، وأضافوا إليها مساحيق تجميل شيطانية، وأشبعوها ضربا حتى أصبحت أكثر خفة ورشاقة... حاولت زوجة الرداد تخفيف وقع الحادث على زوجها، فقالت: "حنا سخينا بها وهي مسكينة ما سخاتش بنا... ما عرفتي الخير فين"

بعد موجة غضب عابرة، ضحك الرداد ساخرا من نفسه وهو يضرب كفا بكف ويردد: لعن الله صباغة الحمير، لعن الله صباغة الحمير...

هكذا يكون الرداد قد بلغ رشده بسبب أتان، ألم يقل أحد الفلاسفة بأن الإنسان يبلغ رشده حين يضحك أول مرة ساخرا من نفسه؟؟؟

بات الرداد الذي باع حمارته بثمن بخس واشتراها بثمن أغلى منه، أضحوكة أهل القبيلة، أينما ولى تنهال عليه التعاليق من كل جانب، ينعته الأقران بالمصبوغ، ويصفه الشباب بالسماوي، وينعته جيل الهواتف بضحية أقوى "كاميرا خفية" وأبشع "شمس العشية"... لحسن حظه، لم يكن سريع الغضب، بل كان صدره يتسع لاحتواء كل ذلك، وكان يرد عليهم في هدوء:

" لي تعجب يتبلى" يعني أنهم ليسوا بمنأى عن الوقوع في نفس المطب، سواء تعلق الأمر بالحمير أو غيرها من السلع، في زمن أصبح فيه كل شيء للبيع...(يضحك كثيرا من يضحك أخيرا...)

عذرا راوي الرواة، سوف أكمل ما بدأت:
بالموازاة مع انعقاد رحبة البغال والحمير، كان يحضر أصحاب المقاهي، ينصبون خيامهم الواسعة ويهيئون أفرانهم استعدادا لاستقبال الزوار، سواء منهم من يبيتون في تلك الخيام أو من يفدون على السوق بعد منتصف الليل من تجار الأبقار والأغنام وغيرها... تدب الحياة في جنبات السوق بعد منتصف الليل بقليل، حيث تبدو طلائع الشاحنات المحملة بالبهائم، يستقبلها أصحابها، يؤدون عنها واجب الصنك، ويدفعونها دفعا إلى الساحات المخصصة لكل صنف، يأخذون أماكنهم ويستعدون لاستقبال أول السائلين... كان عباس يردد دائما: " بلا رحبة البهايم ما كاين سوق"... ثم يذكر للحاضرين تلك الوقفة الرافضة من قبل الكسابة والجزارين والشناقة وغيرهم ضد قرار تحويل رحبة البهائم إلى مكان آخر في محاولة لتجميع رحبات الأسواق بالإقليم في رحبة واحدة... ضجت جنبات السوق والمدينة كلها بهذا الحدث، مما حدا بالسلطات إلى التراجع عن فكرة التحويل أو تأجيلها على أقل تقدير إلى أجل غير مسمى...
يستمر البيع والشراء في رحبة البهائم حتى تدفئ الشمس جنبات الخيام المنصوبة هنا وهناك بشكل متواتر، فيتحول المرتادون شيئا فشيئا إلى باقي

الرحبات، بعد التخلص من مواشيهم بيعا أو إرسالا عبر شاحنات نقل البهائم... كنت أفضل تناول طعام الفطور في مقهى الركراكي البابور، الرجل الطيب البشوش، كان يجلس في أعلى فرن الإسفنج، يمسك بيده قضيبا معقوفا، يحرك به دوائر الإسفنج في مقلاة الزيت، ينظر يمينا إلى مساعده الذي يتولى مده بالعجين، وشمالا إلى زوجته "بيدوسا" أو "بيدوزا" التي تتكلف بالميزان وبمد الزبائن بأطباق الإسفنج وبراريد الشاي. كانت امرأة قصيرة القامة ممتلئة القد، تشبه إناء زيت مملوء، لذلك لقبوها ب " بيدوسا" أو "بيدوزا"... يحلو للمرتادين ممازحتها، فقد كانت بشوشة ذات أجوبة آنية (جوابها على نابها)... فإذا تجاوزوا حدود اللباقة كانت تجحدهم بنظراتها الثاقبة ولسانها السليط، فيبلعون ألسنتهم. كلما رأيتها تذكرت أسطورة : "ميدوسا"، وهي أسطورة يونانية قديمة، تحكي قصة امرأة أقامت علاقة مع ما كانوا يسمونه "بوسيدون"، ويعدونه إلها في معبد أثينا، فغضبت أثينا وحولتها إلى امرأة بشعة بشعر من الثعابين، وأصبح كل من ينظر إليها يتحول إلى حجر... كنت أنظر إلى السواقة وهم ينظرون إلى " بيدوسا " أو بيدوزا" الغاضبة، ويبلعون ألسنتهم ، وكأنهم بذلك قد تحولوا إلى حجارة صماء بكماء لا يقوون على رد أو لجاج أو مجاراة...

اغتاظ راوي الرواة، وكاد يغادر السوق دون أن يكمل فطوره، لكنني تداركت الأمر بالرجوع إلى "رأس الخيط"...

تقطب وجه عباس حين رأى صهره الملقب بالشيطان مارا من أمام

خيمته، كلما رآه يكاد المغص يقطع أمعاءه، وتكاد معدته تسترجع اسفنج السوق وشايه... ألم يكن الشيطان سببا في دخوله السجن لأول وآخر مرة في حياته.
دأب على ضرب زوجته، بنت عباس، وطردها من البيت ليلا صحبة رضيعها، فكانت تأتي منزل والدها في جنح الظلام باكية شاكية، حافية القدمين، وقد تورم محيط عينيها، وبدت عليها آثار ضرب مبرح... كان الشيطان يدلف كل ليلة إلى بيته معربدا لا يلوي على شيء، فيسلط حماقته على زوجته المسكينة دونما شفقة. يطلب منها أن تستفيق في ذلك الوقت المتأخر من الليل، وتسمعه وهو يردد بلسانه الثقيل:
(إن مر يوم من غير رؤياك... مايتحسبشي من عمري...). والويل لها إن رفضت الأمر.

حاول عباس غير ما مرة أن يثنيه عن ذلك السلوك، يجلس إليه ساعات طوال، ينبهه لخطورة أفعاله، ويبين له مقدار تحمله لما آلت إليه العلاقة بينه وبين ابنته دون جدوى... كانت زوجة عباس تُكره ابنتها على العودة إلى بيت زوجها مخافة العار قائلة:
- " واش بغيتي تضحكي فينا لي يسوى ولي ما يسواش؟ فين عمّر شي وحدة تطلقت في عائلتنا؟"
كانت المسكينة تعود في كل مرة مكسورة الخاطر بعد أن يصحو "الشيطان"، فيأتيها راكعا يطلب الصفح. ومع توالي الصفعات واللكمات، ضاقت المسكينة ذرعا بما يدور، فشربت كوب ماء مخلوط بسم الفئران، فماتت

قبل أن تحمل إلى المستشفى ، إذ باءت كل المكالمات بالفشل لأن سائق سيارة الإسعاف التابعة للجماعة كان في مهمة أخرى... انطلق عباس كالأحمق يعدو باحثا عن "الشيطان"، يحمل بيده هراوة غليظة، يهذي بكلام غير مفهوم. تبعته زوجته مخافة أن يرتكب جريمة قتل في حق صهره وهي تصيح في أهل البلدة، خرج الناس يتبينون ما يجري، فكان عباس قد وصل خمارة الفيلاج، يلهث كأنه كلب مسعور... كان يصيح بأعلى صوته:

-" فينك آ الشيطان ؟ فينك ؟ "

لم يكن عباس يجيب أحدا من المستفسرين، خشية أن يمنعوه من ضربه، وفجأة ظهر "الشيطان" بباب الخمارة متمايلا، أجهز عليه عباس بضربة على رأسه فتهاوى مضرجا في دمائه دون حراك. تحلق الناس حول عباس الذي رمى بالهراوة، وجثا على ركبتيه باكيا مولولا، يرثي ابنته غير مبال بما حصل للشيطان. كان صاحب الخمارة يضرب كفا بكف، يهاتف رجال الدرك كي ينقذوا المعتدى عليه، وينقذوا خمارته من الإغلاق والتشميع.

حضرت سيارة إسعاف أخرى بعد حين لنقل الضحية، ثم عرّج سائقها على بيت عباس لأخذ الهالكة إلى غرفة الأموات بالمستشفى قصد التشريح، وهكذا اجتمع "الشيطان" وزوجته الهالكة للمرة الأخيرة تحت سقف واحد، ألا وهو سقف سيارة الإسعاف، حيث كان "الشيطان" بدوره شبه ميت... و اقتيد عباس على متن سيارة "ادجيب" من طرف رجال الدرك... وبدل أن يحضر مراسيم دفن ابنته الهالكة، كان يصحب الدركيين بين دهاليز المخفر،

يحررون محضر النازلة، ويهيئونه للمثول أمام قاضي التحقيق...
تعاطف معه أحد الدركيين قائلا: أعلم أن إحساسك بالأبوة وحسرتك على فقدان ابنتك قد أعميا بصيرتك، لكنني لا أملك إلا أن أدعو الله أن ينجّي صهرك من تلك الضربة القاصمة... على الأقل لن تكون العقوبة قاسية، خصوصا إذا أخذ القاضي في الاعتبار ظروف الحادث... نجا "الشيطان" بأعجوبة، ورفض التنازل عن متابعة صهره عباس لولا أن أحس بخطورة موقفه إزاء انتحار زوجته، إذ باتت أمها تهدده بالمتابعة القضائية، فقد كان بتصرفاته الرعناء سببا في إقدامها على قتل نفسها... تنازل "الشيطان" عن حقه في متابعة عباس، والتمس دفاع هذا الأخير تمتيعه بظروف التخفيف بسبب فقدان ابنته، فحكمت عليه المحكمة بثلاثة أشهر موقوفة التنفيد، وغرامة قدرها ألف درهم ... أما "الشيطان" فأخلي سبيله لعدم وجود دليل قاطع يدينه بالتسبب في انتحار زوجته ...

ظل عباس منذ تلك الحادثة حاقدا على "الشيطان"، يلعن شياطين الإنس والجن، بل يلعن صهره أكثر مما يلعن إبليس... ويكره أن يراه مجددا يبيع ما يبيع قرب خيمته...
غاص "الشيطان"، بعد أن جمع سلعته المشبوهة، وسط أمواج المشاة من مرتادي السوق، وانبرى عباس يتمتم مستنكرا:
" لكي تكون مواطنا صالحا، عليك أن تعشق الأسواق في بلدي"...
ماذا كان يقول هذا الجد (يقصد جد الكاتب)؟
ماذا بقي في الأسواق كي نعشقها؟ أنعشق مثل هذا الصعلوك القاتل، أم

نعشق تكاثر النشالين والدجالين والمحتكرين وصباغي الحمير والغشاشين في موازين وغيرها؟ أم نعشق هذا الغلاء الفاحش في كل شيء؟ ألا ترون أن رحبة الخضروات قد باتت ملتقى المتباكين والمتباكيات على بعضهم البعض، وقفافهم خاوية على عروشها، وأحشاؤهم خاوية حول كروشها؟

يبادره الجيلالي الحلاق بعتاب قاتل : بل أنت أول الدجالين أيها الكذاب الأشر... من أراد أن ينتقد فليبدأ بنفسه... وتلا عليه قول الله: " لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" صدق الله العظيم.

ثم أردف الجيلالي: ما أكثر الشماعات في عصرنا: "كورونا" أفرغت الأسواق وأطلقت الأبواق، أراحت الأمواه وكممت الأفواه، أغلقت الأنوف وشردت الألوف... أما هجمة بوتين على أوكرانيا، فتلك حكاية بدأت، ولا نعرف كيف ستنتهي... أما الجفاف فتلك حكاية أخرى. ويَعُد هذا العالم قتلاه بالملايين، في حروب لا تنتهي منذ آلاف السنين...

يرد عباس في تهكّم: أين تعلمت هذا الكلام أيها المعتوه؟ عليك أن تتخلص من هاتفك الخلوي، وتطلّق منصات التواصل الاجتماعي طلاقا لا رجعة فيه، قبل أن يصيبك الخرف أو العمى... فإن كان لابد منه، فاحرص على "روتيني اليومي" وإلا "شي نهار يقرقبوا عليك" ...

تتعالى قهقهات الباعة والمرتادين، بينما يشير الفقيه البشير على عباس بتغيير الموضوع، فالسوق مناسبة للاحتفال الأسبوعي وليس مكانا للتنافر والجدال. أجل، لئن كان الرجال يجعلون من يوم السوق مناسبة للتسوق

وقضاء المآرب، فإنهم يتخذونه فرصة للتلاقي والتزاور وصلة الأرحام، خاصة في تلك الأزمنة السالفة التي لم تكن تعرف الهواتف. يلتقي الناس ببعضهم، يتبادلون الأخبار، ويعقدون الصفقات المادية والاجتماعية وغيرها... بينما تسعد النساء بالقدوم إلى السوق، فهو مناسبة للترويح عن النفس من عناء العمل اليومي في الحقول ومن أشغال البيت. بل يتخذنه مناسبة للاجتماع بغيرهن من النساء، يصحبن بناتهن في عمر الزواج، وفي ذلك استعراض غير مباشر أمام أعين الباحثات عن زوجة لأولادهن... حين عادت أمي يوما من السوق فرحة مستبشرة بداية السبعينيات...غرسنا عيوننا في وجهها متلهفين للخبر السعيد، فقد كنت أقرأ أفكارها من ملامحها، أو هكذا تعلمت... أعدّت صينية الشاي، ولحما للشواء،ومجمر فحم ملتهب، وطبقا مملوءا أو يكاد بالفول والحمص المسلوقين، بينما فازت أختي الصغيرة بأساور الحلوى الملونة ذات الرائحة الفريدة، واكتفيت أنا ب"فانيد المكانة". جلس أبي مبتسما يترقب مثلنا ما سترفه أمي من أخبار سعيدة. يزداد شوقنا كلما تأخرت في الجلوس قدّام الصينية، لتصب الشاي في الكؤوس. أمسكنا بكؤوسنا الساخنة أنا وأبي وأختي وأخي الأكبر وجارتنا الأرملة "ختي فاطنة"، قالت أمي بنبرة سعيدة:

-"باركوا لأخيكم البكر، فقد عثرت له أخيرا على بلورة لامعة، يشع الحياء من وجنتيها مثل شعاع شمس الغروب، فتاة من "دوار الخربة"، ذات حاجبين سوداوين وقدّ رشيق، ممتلئة الساقين، تمشي في تؤدة وهدوء، ولسانها يقطر عسلا مصفى..."

لم تكمل كلامها حتى احمر وجه أخي الأكبر خجلا وغادر الحجرة حاملا

كأس الشاي وبضع حبات من الحمص المقلي... تبعته أنا وأختي الصغيرة، وكنا قد تعودنا على ممازحته وملاطفته، لكنه نهرنا هذه المرة وطردنا بعنف، فعدنا أدراجنا إلى الحجرة ضاحكين مبتهجين رغم ذلك. قلت لأمي: " الليلة لن ينام أخي أحمد، سيقضيها في السماء السابعة، حالماً يتتبع أوصاف عروسه المرتقبة".
هو يدرك أن مقابلة عروسه قبل ليلة الدخلة أمر شبه مستحيل، لذلك عندما غادر والدي المنزل صوب الحقل، طلب من أمي أن تكمل حديثها، وتصفها له من رأسها إلى أخمص قدميها. قالت أمي ساخرة:

- وهل كنت معها في حمام النساء أيها الأهبل؟ سأصف لك ما رأيت والسلام.

لكن أخي أمرنا بالخروج قبل أن تكمل أوصافها ... وأنا أغادر الحجرة، كانت جارتنا تهمس في أذن أخي همسا مسموعا وهي تقول:

- " هاذي غا خبيزة عطاها ليك الله من الثلاث"

حين غادرت أمي الحجرة سأل أحمد ختي فاطنة: ما اسمها؟
أجابت: نبيلة.
سكت أخي بينما واصلت "ختي فاطنة" كلامها دون انقطاع: هي ابنة الحاج امبارك، علّام الخيل، وقائد سربة الخربة المعروف، صحيح أنه لا يملك أراضي كثيرة، لكنه لم يفرط في الخيل أبدا، صرف عليها كل ما يملك زمن الجفاف، حتى كاد يصبح أفقر أهل البلدة، وكلما عاتبه أبناؤه على الاحتفاظ بالخيول

كان يقول:
-(مول العود دايزة فيه الصدقة... مانفرطش فيها وخا يبقى فيا غا عرق يخبط...).
إنسان شهم، ذو نخوة وأنفة... أهل العروس طيبون يا ولدي، ووالدتها امرأة من الزمن الجميل "تحطها على الجرح يبرا"... بدت على محياه علامة الرضا والقبول، ومد يده إلى طبق الفول يكمشه كمشا،ثم غادر صوب تجمع شباب البلدة... أخي كان يدعى "نبيل"، كان لا يخفي شيئا عن صديقه الحميم "المكي" وجد صديقه المكي منهمكا في لعب الورق مع أبناء القرية، كعادتهم كل مساء بجوار مسجد القرية، وكل صباحات أيام العيد. لم يجد بدا من انتظار إكمال المكي جولة " التريس" فأومأ إليه برغبته في التحدث معه على انفراد. أدرك المكي أن ملامح صديقه نبيل تنذر بشيء جديد، والجديد في أغلب الأحيان بالنسبة إليه كان شيئا سيئا... أخذ نبيل المكي على انفراد، ابتعدا عن جمع الشبان، وجلسا قرب السنديانة الفارعة غير عابئين بروائح روث البهائم التي كانت تستظل بظلها.
المكي: "خلعتيني أصاحبي اش كاين ؟"
نبيل: ما تخافش لقات ليا الوالدة واحد البنت...
المكي: ايوا مبارك مسعود ، لعكوبة لينا، كنتي تكولها قدام كلشي مالها عيب
نبيل: استرنا اصاحبي مازال ما درنا ف الطاجين ما يتحرق...
المكي: شنو سميتها ؟
نبيل: نبيلة.

المكي (ضاحكا): نبيل ونبيلة ... يهبّلوا قبيلة
ثم أخذ نبيل يسرد تفاصيل اللقاء الذي جرى في السوق بين والدته و"ختي فاطنة" ووالدة العروس المرتقبة... كان المكي وهو يستمع إليه يسرح بخياله بعيدا، يتخيل نفسه وزيرا لصديقه مولاي السلطان... يلبس جلبابا أبيض يستلفه من صديق بالبلدة، يرافق العريس ليلة الزفاف إلى الحمام، يركبان بغلتين ويطوفان بالدواوير المجاورة لدعوة الناس إلى العرس... يجلسان بخيمة الحفل الغنائي الشعبي الذي ينشطه "الموتشو"، قبل أن يتسلل العريس تحت هتافات شباب البلدة نحو حجرة العروس، فتوصي طامو البراحة الفرقة الموسيقية برفع الإيقاع في الخيمة، ونسوة الدوار بالغناء بشكل متواصل، مخافة أن يُسمع صوت من داخل الحجرة المغلقة... كان نبيل يكرر كلامه كلما لاحظ سرحان المكي في أحلامه الوردية...
بعد أن أنهى نبيل كلامه، نطق المكي قائلا:

- لقد فتحت الباب يا صاحبي للشبان أقرانك، سترى أن حملة زواج ستبدأ في صفوفهم الواحد تلو الآخر...

هكذا فعل العناد فعلته في الأهالي، فباتوا يقلدون بعضهم البعض في كل صغيرة وكبيرة: في بناء البيوت ، في إضافة زراعة نادرة، في بناء زريبة للأغنام أو حظيرة للمواشي، في تربية الدواجن، في إدخال الأولاد إلى المدارس، في تزويج أبنائهم ... وانتقلت العدوى صوب المدن حتى بات بجانب كل مقهى مقهى آخر...وبين كل مقهى ومقهى مقهًى ثالث... تعانق الصديقان عربون تهنئة، ثم عادا إلى حلقات لعب الورق.

اشتم الشبان رائحة خبر غريب، فكانوا يوشوشون ويتبادلون نظرات الفضول صوب المكي وصديقه نبيل... إلا أن هذين الأخيرين تظاهرا بعدم وجود أي شيء، لكن "الهواري شلاو" كان سليط اللسان، لا يسلم من تعليقاته الساخرة أعتى الشبان قال:

-" ايلا خبيتوا علينا شي طعام يبرك ليكم في الركابي "

بينما كان عباس عائدا في الغد من سوق "الثلاث"، مر شاب من قبيلة بعيدة على متن طفطافة ذات صوت مزعج، يبدو أنه واحد من مروجي المخدرات بالمنطقة، فزع البغل الذي كان يجر عربة عباس، ففر هاربا في غير اتجاه، سقط عباس من فوق العربة وبقي ممددا على الأرض، واستمر البغل يعدو،سمع نبيل صرخة والده عباس دون أن يعرفه، خرج من بين كروم التين التي كانت تملأ الدواوير قبل أن تهجم عليها حشرة مقيتة، وتأتي على الأخضر واليابس فيها، فكانت بمثابة إقبار لنبتة طالما شكلت غذاء الدراويش في القرى والمداشر، وتصادف خروجه مع مرور العربة الهائج بغلها، صدمته العجلة، فسقط بدوره مغشيا عليه من قوة الارتطام. تحلق أهل الدوار حول عباس ونبيل، تمكن عباس من الوقوف بينما استفاق نبيل دون أن يقدر على المشي، فقد أصيب المسكين بكسر في ساقه اليسرى.

في باديتي لا صوت يعلو على صوت الرجال، ولاشيء يطبق في الواقع غير همس النساء. أصواتهن حنين أو بكاء وأنين، يصول الرجل ويجول في بيته، ولا يفعل إلا ما تشير به النساء. هكذا كنت أستشف بذكائي الصغير. بعد هذا

الحادث كان المكي يهذر بكلام لا معنى له، يقول مثلا:
-" هاذ العروسة دخلت عليك مباركة مسعودة"
وفي ذلك إشارة إلى نحس مجهول وتشاؤم، مفادها اعتقاد مخروم... كان نبيل وهو يتألم، يستمع إلى سخرية المكي اللاذعة جدا دون أن ينبس ببنت شفة، فقد عاش قبل الحادث لحظات حلم رائعة، وأدخل إلى تجاويف رئتيه أنفاس عشق لم يذق مثلها قط. فكيف يضحي بها عند أول كبوة؟ وما علاقة بنت "الخربة" بالحادث؟ والدة نبيل التي تعرف ابنها أكثر من غيرها، وتعرف مقدار الصداقة بين ابنها وبين المكي، لم تتوان في التدخل وكبح جماح هذا الأخير، وصرفه عن أحاديث لا معنى لها. كانت تردد عبارات من قبيل: " المومن مصاب... لي جات من عند الله مرحبا بها... الحمد لله جات سالمة... إن شاء الله جبيرة عباس دغيا كتبرا... وطلقنا خلاص للفراجة بغينا نفرحو بيك..." .
مرة أخرى فهمت وفهم المكي أن النساء في بلدتي هن صاحبات القرار وأن الرجال هم أصحاب الكلام... يغتاظ الرجل منهم ويهوي على زوجته بضربات متهورة، بما يحمله من أدوات الفلاحة، حين تخالف أوامره أو ترغب في شيء ... تبكي المرأة المقهورة، تنزوي في ركن من أركان المنزل متألمة . تنام الليل في عزلة تامة... وما هي إلا أوقات يسيرة حتى تجدها منشغلة بأعمال البيت، غير مكترثة بما جرى، لكنها بلغت مرادها ، إذ يكون الزوج قد لبى طلبها المرفوض في البداية... لكل واحد في هذه الحياة رسالة، ولكل واحد فيها سلاح... ومع تكاثر الأسلحة قد تصبح الرسائل في خبر كان...
استعاد عباس قوته وهدوءه، أحضر لوازم الجبيرة، ثم قام بما يلزم تجاه ابنه

المصاب... والدة نبيل تحاول تلطيف الأجواء، فالحادث كان بسبب صاحب الطفطافة المجهول، ولم يكن بإمكان عباس كبح جماح بغله الخائف... كان عباس يطمئنها بأن الكسر شق بسيط، وأن جبره لن يحتاج أكثر من أسبوعين أو ثلاثة... وبيننا وبين فترة الأعراس في الصيف شهور أربعة...

صخب السوق وصراخه لا يهدأ، يبدأ باكرا ولا ينتهي إلا بعد أن يجمع الباعة خيامهم ويرحلون، كان عباس أشد ما يكره جمع الخيام المتربة، ونفض غبارها المزعج، وطيها ثم حملها على العربة، مع ما يتطلب ذلك من جهد بعد عناء يوم كامل، يستعين على ذلك بابنه أو أحد معارفه. أما صراعه مع البغل ، فذلك موضوع آخر..

كان يكره إلقاء نظرة "بانورامية" على السوق بعد فراغه، أكوام من الأزبال وألوان من قطع البلاستيك والكاغد والجلود... وكلاب بأعداد كبيرة تتسكع،ونساء ملثمات يجرجرن أقراص المغناطيس لجمع ما تناثر من حديد قابل للبيع، وأطفال يبحثون عن بقايا مختلفة، قد تكون نقودا معدنية تغطيها الأتربة في رحبة الخضر وغيرها... كان عباس يعتبر ذلك العناء ضريبة يدفعها مقابل السعادة التي يشعر بها حين يفتح صباح السوق عينيه، ويمد يده إلى الزوار بصينية شاي شهية... بالنسبة لعائلة عباس، لم يعد رجوعه من السوق مصدر سعادة تستشعرها عوائل من يذهبون إلى السوق مرة في الأسبوع، فالسوق لدى عباس وعائلته شبه يومي، لا يرتاح إلا يومين في الأسبوع، ولهم في كل سوق نصيب من المؤونة... زوجة عباس امرأة بدوية أصيلة، تلقاه كل مساء بقفشاتها المعهودة، تنزله من فوق العربة، ثم تتولى إفراغ الحمولة

وربط البغل بمساعدة ابنتيها، قبل أن تقدم له ماء دافئا، فيغسل وجهه ورجليه، يتناول ما حضّرت من طعام قبيل مجيئه، ثم يستسلم للنوم في انتظار صيحة الديك فجر اليوم الموالي... وقبل أن ينام، تخبره بأنها تنوي مرافقته في الغد إلى سوق "أربعاء اولاد عمران"... حيث ستبيع دجاجتيها وديكها الأحمر.

عباس: ولماذا لم تفعلي ذلك بسوق "الثلاث"؟

الزوجة: أريد أن أضرب عصفورين بحجر، أبيع الدجاج، ثم ألتقي بأختي فاطمة، فهي لا تفوّت فرصة السوق أبدا...

عباس (متأوها): "يصبح ويفتح"، فيقيني معك بكري الطريق طويلة...

وضع عباس رأسه على الوسادة، بسمل وحوقل ودعا بما ألف من دعاء، ثم أسلم خياله للتفكير في أمر سوق الثلاث، ذلك التجمع الكبير الذي مثل على مر السنين ملتقى الناس من كل صوب وحدب، وملتقى البضائع من كل صنف، وملتقى التجار من كل الأماكن... وشكل مصدرا أساسيا لتزويد البلاد باللحوم والألبان والخضروات والفواكه وغيرها، بل شكل ملتقى للفرحة والفرجة ... وتساءل عباس وهو يتقلب يمينا وشمالا كلما أحس بدبيب الحرارة في جسده، جافاه النوم وهو يعيد التفكير في أمر هذا السوق العظيم كما يراه. لئن كان يستسيغ كل تلك التحولات التي طرأت عليه بتغير المكان والزمان، واختفاء وجوه غيبها الرّان، فهو لا يستسيغ مجرد التفكير في اختفاء السوق من قلب سيدي بنور. هو زحف الإسمنت الذي جعل قلب الحاضر يقسو على ماضيه الجميل، على نكهته العروبية السمحة، على حلقاته الفرجوية

العجيبة زمن زعطوط، ولد قرد، اخليفة، الطيمومي، الغليمي، الكريمي، اعبيدات الرمى، موات الحمير، أصحاب القرود، أصحاب الضادوس وغيرهم... أي ذاكرة تقوى على الثبات ولم هذا الشتات في ذهن عباس وأمثاله؟

رحم الله الغليمي الذي كان يرثي نفسه قبل رحيله قائلا" نهار نمشي زرعوا فبلاصتي نخلة" وفعلا حين غاب وأمثاله، غابت الأشجار الظليلة وحل محلها نخل بلا ظل ... لعن عباس شياطين الإنس والجن، وتقلب على جنبه مرة أخرى، فهو لا يستسيغ أن يطول به العمر حتى يعيش كل هذه التحولات وهذا النكوص حسب رأيه. كان يشعر بوحدة قاتلة كلما غيب الموت أحد أقرانه من الكبار، فهو لا يستطيع مجاراة جيل الهواتف، ولا يستلطف أشكال الكثيرين منهم. هل كان يظن يوما أن ينقطع ماء السواقي التي كانت تروي الأراضي المحيطة بالسوق؟ أن تتراجع زراعة الشمندر بهذه الصورة؟أن تنقرض كروم التين بفعل الحشرة القرمزية؟ أن يَسجن العالمَ بأسره فيروسٌ رهيب؟ أن تبتلع المتاجر الكبرى دكاكينَ صغار التجار وخيامهم؟ أن يتحكم المخطط الأخضر في الأخضر واليابس، فتتحول الوفرة إلى خصاص، والعموم إلى خواص؟ تجاهل كل الأسئلة، وحاول أن يسلم جفنيه للنعاس دون جدوى... واختلفت برأسه طرقات ومسالك، أعادته لأيام السوق القديم الذي كان يقام في المدخل الشمالي للفيلاج، قبل أن يتحول إلى المدخل الجنوبي. وكيف تغيرت الأماكن دون أن تتغير المساعي والأمزجة، ولعل الفترة التي تلت جفاف مطلع الثمانينيات، كانت كفيلة بتغيير ملامح الفيلاج والسوق معا. فقد فعلت الهجرة القروية فعلتها، فتناسلت الأحياء القصديرية بشكل كبير تناسل ضفادع درب "الجران" في زمن الوادي الموسمي ، فأحدث نقيقها ولا يزال

الكثير من الضوضاء في المسامع، والكثير من الأحزان في المدامع... وبات حي القرية الصفيحي مخبأ فئات هشة عريضة، فترات قبل أن يطاله التفكيك فيما بعد، ومرتع علل وتناقضات وفتن، وشكل نسبة مرتفعة من الساكنة، تعادل أو تفوق ساكنة الفيلاج في لحظة من اللحظات... كان ارتباط هذا الحي بالسوق ارتباطا وثيقا، حيث وجد النازحون من البوادي فرصا مؤقتة وعابرة لكسب القوت اليومي. وتناسلت العربات التي تجرها الخيول أو البغال، فصارت وسيلة نقل رائجة بين السوق والحي الصفيحي مرورا بالفيلاج، بل إنها أصبحت ورقة رابحة في يد تجار الانتخابات، فكم مرة كانت العربات سببا في استمالة سكان الحي للتصويت لصالح حزب معين، وكم مرة شاع بين الأهالي التصويت بمقابل ورقة زرقاء، وتلك والله صباغة أخرى... هكذا إذن وجد الرداد مخرجا ينقذه من تنمر العوام على شرائه أتانه المصبوغة، فصار يتهكم عليهم قائلا: " لقد بعت حمارتي واشتريتها من جديد، أما أنتم فقد بعتم أنفسكم للمرشح الفائز، وهيهات هيهات أن تشتروها ...". كان عباس أحد المستفيدين من أوضاع هذا الحي الصفيحي، فقد اشترى عربتين اثنتين يجرهما حصانان، وكان يُكريهما مقابل مائة درهم لليوم. ولذلك كان يتردد على الحي الصفيحي باستمرار، حتى أصبح له من أهل الحي معارف وأصحاب، يمر بهم كلما سمحت له الظروف بذلك. ظل على تلك الحال أعواما، ولم يخطر بباله يوما أن يتورط في فضيحة بهذا الحي البئيس: أخبرته خليلته "عبوش"أنها حامل في شهرها الثالث... نزل عليه الخبر كالصاعقة، فكاد يفقد صوابه، التجأ إلى صديقه الذي كان يعرف مغامراته السرية، حاول جاهدا أن يسكت نحيبها وولولتها، وتدبر أمر سفرها وإخفائها

لدى أحد خلصائه بالبادية حتى تلد، وبعد ذلك يرى ما يمكن أن يفعله بالمولود. كانت صدمة قوية، بل كانت القشة التي قصمت ظهر عباس، وشغلته عن الأسواق، فصار يمشي في البلدة كالمريض الأبله، وافتقده الجيران في الأسواق شهورا... بعد اختفاء عبوش عن الأنظار، وادعاء جارتها أنها وجدت عملا في مدينة مراكش بأحد البيوت، ظل عباس مترددا على الحي، يغدق بسخاء على كل العارفات والعارفين بقصته عسى أن يستروا أمره، ويكفوا ألسنتهم... فأي نفس أمارة بالسوء، تلك التي صبغت هواه حتى غوى؟ وأي ريح صرصر عاتية قد تأتي على ما بنى ثم استوى؟ هي غلطة عمر ذات امتداد لا يعالجه الدوا...ء، كان صديق عباس رجلا هادئا، ذا قدرة على الإقناع والتأثير، فعادة ما كان يأخذه الأهالي في زيارات رأب الصدع بين الأزواج. كان يأخذ صديقه على جانب من الرأفة والهدوء، يكلمه عن مصير ذلك الطفل المجهول غدا، وعن حاجته إلى نسب يسمح بتسجيله في كناش الحالة المدنية، وبدخول المدرسة بعد ذلك... ثم وعده بأن يعمد إلى إخبار الزوجة الأولى، في محاولة لتقليل الخسائر، فقد بات الخطب أدهى وأمر... كانت زوجة عباس منشغلة بحالته المرضية، يشتكي من آلام وأرق وكوابيس... فكانت المسكينة تتردد على خيام الدجالين من الرقاة بالأسواق، تحاول إنقاذه مما هو فيه... بلغت المشاكل ذروتها حين أخبرها صديق زوجها بالأمر، فغادرت المنزل إلى بيت أهلها صحبة ابنتيها، ليعيش عباس أسوأ مراحل عمره. كان لزاما على الجميع إعطاء وقت للوقت كي تهدأ العواصف والعواطف، وتختار الزوجة بين القبول بالواقع الجديد أو الزج بعباس في ردهات السجون.

سمع صوت سيارة مزعج، وطرق الباب بقوة، فتح الباب فإذا برجال الدرك أمامه. حاول الهرب، فارتطمت رجلاه بزوجته، فاستيقظ مذعورا يشهق شهيقا مبحوحا، ناولته زوجته إناء ماء وهي تبسمل متسائلة: مالك؟ بسم الله الرحمان الرحيم... كان كابوسا مزعجا... الحمد لله. قام عباس من فراشه، غسل وجهه ثم عاد ليكمل نومه...

قبيل الفجر بقليل، كانت زوجة عباس قد أعدت طعام الفطور، فقد اعتادت أن تترك بقراج القهوة يغلي على نار الفحم، تزيده ماء كلما استفاقت من نومها، حتى إذا كان الصباح، أضافت إليه بعض السكر والحليب وقدمت إلى الأسرة إبريق قهوة مملوء، بنكهة رائعة. وبجانب ذلك، عمدت إلى ملء حوصلة الديك والدجاجتين بحبات الذرة كي يزيد وزنها، وتلك حيلة معروفة لدى البدويين: يملؤون حواصل الدجاج قبيل بيعه، يقدمون العلف المملح والماء للأكباش والشياه كي تبدو منتفخة سمينة، يجلدون الحمير جلدا كي تصبح مذعورة ويعتقد المشتري أن ردة فعلها جيدة وقدرتها على التحمل كبيرة، وهلمّ صباغةً... شعارهم في ذلك:" الله يجعل الغفلة بين البايع والشاري"

بعد تناول وجبة الإفطار سريعا، كان البغل يهرول باتجاه السوق، وزوجة عباس تمسك حبل القيادة. أما عباس فقد وضع يديه في جيبي جلبابه الصوفي الأسود، ورأسه محشوة بقبه ، سلم على راكبي العربة الأولى التي التقياها، سألته زوجته عمن يكون هؤلاء، فأخبرها أنهم من تجار الأبقار، لا يذهبون إلى الأسواق إلا جماعة. فهم يخافون اللصوص الذين يتصيدون تجار الأبقار، يعلمون أنهم يحملون قدرا مهما من المال، فيعمدون إلى الاستفراد

بأحدهم ومباغتته بواسطة "القرطة" ، حيث يأتي اللص من خلف التاجر، ويخنقه بعصا غليظة، ويأخذ بقية اللصوص ماله، فلا يستطيع الفكاك منهم رغم ترنحه الأول ،بل قد يدخل في غيبوبة لا يستفيق منها إلا في المستشفى أو القبر... ارتعدت فرائص زوجة عباس وامتصت شفتيها محوقلة...ثم واصلت المسير في صمت. وعندما كانت العربة تسير بمحاذاة الطريق المعبدة، حاول عباس تكسير ذلك الصمت المريب، فاستغل مرور حافلة نقل الركاب إلى السوق، وبدأ يسترجع ذكرياته مع هذه الآلة العجيبة زمن الحماية الفرنسية. لم يكن عددها يتعدى ثلاث حافلات، يعرفها الصغير والكبير، ذات هيكل حديدي عريض، ومقدمة تشبه رأس تمساح، وسلالم خلفية سميكة. معها عاش عباس وأقرانه حكايات ومغامرات لن تتكرر أبدا. يلتفت إلى زوجته مردفا:

كنت وأنا أركب الحافلة أستشعر هيبة ووقارا، وألمس ذلك البون الشاسع بين ركوبها وركوب الدواب. نفس الهيبة كان يتحلى بها سائقها، بينما كان العربي "الكريسور" يتمتع بلباقة وحلاوة لسان، يتولى بيع التذاكر بشكل مباشر للركاب، وقد يغض الطرف عن واجب تذكرة ناقص من عجوز أو أرملة، ويتسامح مع طالب لم يجد ثمن الركوب أو يخفض ثمن تذكرته. تلك الحافلة يا سيدتي قصة أخرى... يمكنك آنذاك حمل كافة المشتريات بجانب مقعدك أو في صناديق الحافلة أو على سطحها الواسع الفسيح؛ كيس فحم مملوء، قفة مملوءة بالخضر، صندوق عنب طازج، قنطار قمح أو شعير أو نحوه، حزمة دجاج مربوط كقبضة معدنوس، برميل زيتون أو زبيب... وعادة ما كان يركب

بعضنا جنبا إلى جنب مع الأمتعة.
في تلك الحافلات يمضي العشرات واقفين بين الصفوف حين تمتلئ الكراسي، تلفحهم روائح العرق دون أن يصدر عنهم أدنى امتعاض أو تنمر، يتزاحمون ويتراحمون مرددين عبارات " التيساع في القلب" ، " سويعة ويتفرتك السوق" ، "الله يجيب غا الصحة والسلامة"... ومرددين الصلاة والسلام على النبي عند انطلاق الحافلة ..
في تلك الحافلات قد يتقيأ أحدهم جراء الدوار في قطعة بلاستيكية، أو عند أرجل الركاب فيكتفون بوضع أياديهم على أنوفهم وقد بدت عليهم علامات الإشفاق عليه...
في تلك الحافلات سوق أخرى، قد يصعد بائع البيض المسلوق والخبز، وسقّاء المياه في جرة طين، وبائع الكاوكاو والحمص... وقد يصعد بائعو الأدوية التي تصلح لكل شيء، خصوصا أمراض الجلد والمفاصل والعظام ... وقد يصعد باعة المبيدات الحشرية... وقد يصعد محترفو التسول، يتفننون في افتعال الأمراض والإعاقات والنحيب والشكوى... وابتكار قصص الحبال المقطوعة ... وقد يصعد أصحاب المعدن العجيب الذي يبطل السحر ويفك الثقاف ويحل عقدة العنوسة ...
في تلك الحافلات قد يتوقف السائق ليفسح المجال لراكب مستغيث ملأ بطنه من مأكولات السوق، فأصابه إسهال حاد، دون احتساب الوقت الضائع...

في تلك الحافلات قد يقطر على هامتك مرق دجاج أو زيت إسفنج بارد من تلك الصُّرر المصفوفة في الرفوف العلوية للحافلة، دون أن تتفوه بكلمات، بل إن شخصا قبالتك يبادر بالقول: " فاض عليك الخير" فتلزم الصمت والهدوء...
في تلك الحافلات قد يشرب الجميع من قنينة واحدة دون تفكير في العدوى...
في تلك الحافلات يخصص السائق مكانا لسيدة تصعد متأخرة، تلفت نظر الركاب بكثرة المساحيق على وجهها ونظافة لباسها الذي يشبه لباس "الشيخات" في العرس. تجلس بجانبه على سطح غطاء المحرك، يتبادلان الأحاديث طول الطريق...
وفوق هذا وذاك، وفي تلك الزحمة الغارقة في العرق، يصعد فكاهي يتأبط قيثارة، يسيطر على الأسماع بكلامه، فينقلب الجمع إلى حلقة فرجة، يتسلل بعدها الفكاهي من الخلف بعد أن يجمع ما تيسر وما تبقى لدى السواقة من نقود...
في تلك الحافلات ...
(اصمت قليلا... كم يحلو لك أن تكرر هذه الأسطوانة القديمة التي مللت من سماعها...)، تقاطعه زوجته وهي ترخي لجام البغل، وتنشغل عنه بلف منديل حول عنقها وإسدال خمار على رأسها اتقاء برد الصباح... كانت المسكينة منشغلة بالتفكير في يوم طويل مشبع بالحركة والجهد. فإذا استثنينا تلك اللقاءات الجميلة التي سوف تجمعها بأختها وبأخريات ممن تعرف أو لا تعرف، وباستثناء تلك اللحظات شبه المسروقة من بين ضجيج المقاهي الشعبية، كانت تجد صعوبة كبيرة في المزاوجة بين متاعب السوق وما ينتظرها من أعمال

البيت عند الرجوع مساء. تغالب حرارة الشمس أثناء السهر على تنظيف حواشي الخيمة بالسوق، وأثناء قضاء أغراضها وإتمام مشترياتها، وأثناء جمع وطي الخيمة قبيل العودة إلى البيت، حيث ينتظرها عمل آخر... المحظوظات من النساء هن من زوجن أبناءهن، فصارت زوجاتهم عونا لهن...كانت المسكينة تعتمد على ابنتيها الصغيرتين المتنافرتين على الدوام في أعمال الكنس والتنظيف وغسل الأواني، بالإضافة إلى رعاية الغنيمات والبقرتين والحمارة من حيث العلف والمورد...أما أشغال الطبخ وحلب البقرتين فكانت مجبرة على القيام بها حتى ولو كانت عائدة من السوق للتو... تعود متعبة، يتمدد عباس في قلب الحجرة، بينما تعري المسكينة ساعديها، تشد أكمامها بقطعة بلاستيك (شمّار) ثم تشرع في إشعال الفحم لتهييء وجبة شواء، تصب الفول والحمص المسلوقين في طبق، تهيء براد شاي قبل أن تشرع في تقطيع اللحم وتقشير البصل وإعداد خلطة التوابل وملء القضبان، تصب جام غضبها على ابنتيها قائلة:

-" نوضوا عيطوا على ختك فاطنة تعاونني، ما تنفعوا ما تضروا كيف حليب الحمارة"

تساعدها ختي فاطنة حين وصولها ، وما هي إلا لحظات حتى يتسلم الجميع قضبان اللحم المشوي وقطعة خبز، فيتلذذون بما طاب على نغمات العوني والبهلول المنبعثة من جهاز الفونوغراف... لكنهم لن يكتفوا بذلك، بل إن ليلة السوق تكتمل بإعداد وجبة عشاء بلحم "سوق الصالحين" كما تسميه

"ختي فاطنة"... كانت ترفض غسل لحم السوق، وتعتبر غسله تنقيصا من قداسته. تجتهد كثيرا في إعداد الطعام، تبعث منه للجيران والأقارب، قبل أن يجتمع الجميع حول المائدة...ربما اكتسب اللحم لدى الأهالي قداسته من ندرة اقتنائه وقلة ذات اليد إبان فترة الحماية و ما بعدها ، فكانوا قليلا ما يتمكنون من شراء اللحم. وبذلك باتوا يحرصون على إطعام الجيران مخافة أن يتعرضوا للمس أو المرض...بل إن الواحدة منهن كانت إذا نام ابنها الصغير دون أن يتعشى ليلة السوق، وضعت في فمه قطعة لحم صغيرة جدا مخافة أن يصاب بمس أو هوس...تقول لابنتها:

-(ديري لخوك شنتيفة في فمو ليتهاوش)...

مثل هذه التفاصيل هي ما يشدني شدا إلى السرد، ومع ذلك أتهيب أن يلقبني أحدهم بالكاتب، وأتهيب أكثر أن أُنسب إلى فصيل الشعراء، فالكاتب أو الشاعر هو الحرفي الوحيد الذي لا يضمن أن ينتج غدا مثل أو أفضل مما أنتجه بالأمس... ماذا لو أذّن مؤذن أيها الشعراء إنكم لسارقون، وأذن مؤذن أيها التابعون إنكم لغاوون، فكيف أقوى على الرد بالقول: "إنْ أسرقْ فقد سرق الكتاب والشعراء من قبلي..." وهل يسرق المتنبي أو المعري مثلا؟ ألم يقل أحدهم بأن الأدب متناص؟ لا تحدثني عن الفرق بين التلاصّ والتناص الآن... ألا يعد ما أفعله بالكتابة صباغة للنصوص؟ أيها القراء الأعزاء، احذروا شراء كتبي، فلعلها تعرف مكانها داخل رفوف خزاناتكم، كما عرفت حمارة الرداد مكانها في الإسطبل... وفوق هذا وذاك، هل أصف في كتاباتي غير ما تعيشون؟ دعوكم من هذا "المونولوغ" المؤرق، فقد كاد مرارا

ينسف علاقتي بالكتابة، ولْنتابع حكاية عباس...
لم يكن سوق أربعاء أولاد عمران بنفس الزخم والكثافة والانتشار الذي يعرفه سوق "الثلاث"، لكنه كان مقصدا مهما للسكان المحيطين بدوائره. نصب عباس خيمته كالمعتاد، عرض سلعته بغير مزاد، وانتظر وزوجته أن تصعد شمس الصباح قليلا، وتدب الحركة في الممرات. لمح عباس نور الدين عامر قادما نحو الخيمة، كان من عادة عامر أن يزور عباس كل سوق، يجالسه بعض الوقت، وقد يتناولان الفطور معا قبل أن يختفي. عباس لا يعرف عن نور الدين سوى أنه طالب جامعي سابق، حاصل على الإجازة، بحث عن عمل لكنه لم يكن محظوظا. إلا أن الكاتب يعلم أن نور الدين عامر عائد للتو من رحلة "قوس قزم" ، تلك المغامرة الفاشلة التي تركت في نفسه جرحا غائرا لم يندمل بعد... لاحظ عباس أن عامر كان في حالة نفسية غير مريحة، يراقب المارة في صمت، يتابع غبار الحمري، يخط بأصبعه خطوطا متشابكة، يجتر مرارة الفشل الذريع، يعض أصابعه الأخرى حسرة وكمدا على خسائره العظمى... فجأة ترك خيمة عباس وانطلق باحثا عن شيخ القبيلة. كانت جيوبه خاوية من كل الأوراق النقدية و الوثائق الثبوتية لهويته، لقد أضاعها في رحلته المشؤومة. جلس ينتظر الشيخ بخيمة الحاكم القروي آنذاك، فكان ينصت إلى الأحكام في اندهاش. كان المشهد بعيدا عما درسه في كلية الحقوق من أصول القضاء وقوانينه بُعد المشرق عن المغرب. يستمع الحاكم القروي إلى المتقاضين، ويرسل الأحكام على عواهنها فورا، يسجل الأحكام في سجل

خاص، من رضي الحكم فله الرضا ومن لم يعجبه حكم الحاكم القروي فليلجأ إلى المحكمة الابتدائية بـ"الفيلاج"، وكانت الجلسات آنذاك تقام في مرآب كبير قبل بناء محكمة، شأنها شأن العديد من الإدارات العمومية وشبه العمومية...
لم يستسغ نور الدين عامر أن تتم الأحكام بتلك الطريقة الفجة والسريعة، فبادر الحاكم بسؤال بعد انصراف المتقاضين: كيف تحكم استنادا إلى الأقوال يا سيدي؟ رد الحاكم القروي: أنت لا تعرف البدو، إنهم أخلاف وأجلاف، إذا رأيت المشتكي منهم يتباكى فاعلم أنه ظالم... أنا أعرفهم واحدا واحدا، ولو لمسوا في جانبي بعض اللين والتراخي للجّوا في طغيانهم وتطاولوا علي وعلى غيري. فأنا أحفظ للحكام هيبتهم، وأقضي بما يملي علي ضميري... في تلك الآونة دخل مشتكٍ آخر، عرض دعواه، سجلها الحاكم في كناش ثم سأله: هل لديك شهود على ما تدعي؟ رد المشتكي: "موجودين" . تبدلت لهجة الحاكم القروي، اعتدل في جلسته وقال: لو أحضرتهم في السوق المقبل سأدخلك وإياهم إلى السجن... انصرف المشتكي دون أن يرد بكلمة. نظر نور الدين عامر إلى الحاكم القروي نظرة استغراب ثم غادر الخيمة وجلس بعيدا ينتظر شيخ القبيلة. هو الآن يفكر كيف يكلم شيخ القبيلة الذي يعرف عنه كل شيء، هل يقبل أن يسلمه شهادة السكنى أم أنه سيدخله في مشاوير الذهاب والإياب، حتى ينسى مشيته مثل الغراب...؟ ما إن رآه شيخ القبيلة حتى صاح في وجهه: أيها المعتوه المغفل، قضيت عمرك في المدارس والجامعات ولم تتعلم شيئا، في النهاية خدعك قزم... لم يقبل بك لا بر ولا بحر، وعدت أدراجك تعكر مزاجي ومزاج القبيلة. لكن لا بأس أن تكون عبرة للشبان الغارقين في أحلام

الهجرة... كان عامر مطأطأ الرأس إزاء ازدراء الشيخ، يبتسم رغم شعوره بالمرارة والأسى، فهو لا يجرؤ على مخالفة شيخ القبيلة مخافة أن يحرمه شهادة السكنى. انتبه الشيخ إلى حال عامر، وبدا كأنه يشفق عليه فقال:

-وماذا تريد في يومك الفارغ هذا؟

- لقد ضاعت كل أوراقي ، ولي رغبة في الذهاب إلى المدينة من أجل البحث عن عمل، لكن علي أن أنجز بطاقتي الوطنية أولا.

قهقه الشيخ ساخرا:

- لن تفلح أينما وليت وجهك أيها المنحوس...

في تلك الأثناء مر من أمام الخيمة مسعود الأهبل، الوحيد الذي كان يتهكم على شيخ القبيلة الذي سبق أن استولى على أرض والده، يواجهه بضراوة وهو يصيح: "واشيخ القبة... واكل بلاد بّا" ...

يتحاكى أهل القبيلة قصة بيع مغبون كان ضحيته والد مسعود. ينهر نور الدين عامر الولد الأهبل، في محاولة لكسب ود شيخ القبيلة بعد تخليصه من صراخ ابن مسعود... غمزت صنارة عامر، فتسلم شهادة السكنى من يد شيخ القبيلة، ثم انطلق صوب المقاطعة ثم رجال الدرك من أجل إتمام الإجراءات الإدارية قبل الذهاب إلى الفيلاج حيث المرحلة الأخيرة لدفع الوثائق مقابل توصيل... تردد كثيرا قبل أن يتوجه إلى بناية الشرطة، فقد أوجس في نفسه خيفة أن يكون ضمن المبحوث عنهم في قضايا الهجرة غير الشرعية... لكنه قرر أن يمد عنقه لسكين الهواجس حتى لو ذبح من الوريد إلى الوريد، فلطالما

أظلمت الدنيا في عينيه، لكنه يتهيب ظلمة السجون وظلمها ... في الطريق التقى احميدة ولد الرداد الذي لقبه أقرانه باللقلاق لطول قامته وطول لسانه أيضا. بادره اللقلاق متنمرا حين رآه يتأبط حزمة أوراق، ويقصد في مشيه:
-" إلى أين أيها المصبوغ، لقد صبغوا حمارة أبيك برا، وصبغوك بحرا أيها الأبله، بماذا نفعتك تلك الأوراق؟
" -كفّ عني لسانك أيها الشرير، (لي فيا يكفيني)...
ثم تركه يهذي بكلام مبهم وانصرف...
أين تركنا عباس وزوجته؟
ولماذا تسأل؟
امتعض راوي الرواة وهو يصرخ في وجهي: أين تعلمت أصول الحكي؟ أراك تخبط خبط عشواء في خرق سافر لأصول السرد المعروفة...
قلت: عن أية أصول تتحدث؟ إن دخول العالم في الحرب العالمية الأولى ثم الثانية، وتناسل الحروب في شتى الأقطار والأمصار، كل ذلك يبرز الفشل الذريع الذي عرفه ويعرفه العالم . لقد استنفد الناس كل وسائل التفاهم والتعقل والصبر والفكر، وبذلك تكون البنيات الفكرية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية والاجتماعية وغيرها قد فشلت فشلا ذريعا... فكيف تريدني أن أتمسك بأصول كتابات لم تُجْدِ العالم نفعا. دعني أحكي بفوضى أفكاري وحواسي وتخيلاتي وتهيؤاتي تماما كما يمضي هذا العالم المصبوغ بطلاءات خادعة... دعني آكل في الأسواق وسط الغبار ورائحة روث البهائم، دعني أهيم في الأسواق،

تخدعني الأبواق والأشواق... غير أني لن أترك عباس بمفرده...
زوجته امرأة رزينة، قضت في سوق "اولاد عمران" زهاء ثلاث ساعات تتحدث مع أختها. أخبرت كل واحدة منهما الأخرى عما جرى في بلدتيهما خلال فترة الغياب السالفة، وأخذ منهما موضوع زواج نبيل ونبيلة حصة الأسد، كانت أختها سعيدةً بهذا الخبر، ولا شك أنها ستعيش أياما على وقع أحلام عرس بدوي مرتقب... أما عباس فقد ظل طيلة الوقت في خيمته، يقابل الزبناء فيقضي حوائجهم، يبيعهم قوالب السكر، يَجبُر كسور المكسورين، يرشد بعضهم إلى بعض الأعشاب وكيفية استعمالها... لكنه كان طيلة اليوم مشوش الذهن، فقد أفزعه كابوس البارحة، فظل يتساءل عن مصير علاقته الحقيقية مع عبوش. ماذا لو تحول الكابوس إلى حقيقة؟ لم يتلذذ بطعام السوق كعادته، فقرر أن يبتعد عن الحي الصفيحي قليلا. لكن شتان بين القرار و التنفيد... إنه يشعر كل مساء بمغناطيس خطير يجذبه صوب الحي الصفيحي، فكان يركب دراجته ويولي شطره. يجلس مع أول تجمع لأصحاب عشبة الكيف، يعدل مزاجه،ثم يتوجه صوب أصحاب العربات المكتراة، يتسلم واجبه اليومي، ثم يعرج على مكان المغناطيس قبل أن يقفل عائدا... كان صديقه ينهاه باستمرار عن ذلك بسخريته المعهودة فينعته بالميت الذي يمشي في الأسواق، ألم يذكر الفقهاء أن المعدوم شرعا كالمعدوم حسا؟
عادت زوجة عباس من رحبة الخضر والفواكه، ساعدته في جمع الخيمة وحملها على متن العربة، ثم ركبا معا باتجاه البلدة... في طريق عودتهما، طلب منهما شاب يبدو متعلما وأنيقا، أن يأخذاه معهما إلى بلدته ... ركب الشاب، فطفقا

يسألانه عن أصله وفصله، وسبب مجيئه، ولماذا وكيف ومتى وأين ووو... كان المسكين يعلم أن إجاباته هي ثمن تذكرة الركوب، لذلك كان يجيبهما بكل هدوء... كان طالبا في كلية الآداب، شعبة السوسيولوجيا، وهو منهمك في إنجاز بحث حول دينامية العمران... حين أفرغا ما في جعبتهما، وجدها فرصة جيدة لطرح مجموعة من الأسئلة ، بطريقة غير مباشرة، قد تفيده في بحثه. وتساءل عن تلك المنازل الفاخرة التي تناسلت على جنبات الطرقات المعبدة على شكل ضيعات خاصة، يبدو على أصحابها طابع التمدن والثراء، فقد أصبحت هذه الظاهرة بمثابة هجرة معكوسة، يبحث أصحابها عن المزاوجة بين التمدن والفضاء القروي الهادئ البعيد عن ضجيج المدن والنقي من ملوثات الماء والهواء... كان البدو يهاجرون قراهم بسبب الجفاف أو قلة فرص الرزق، يسكنون حيثما وجدوا، يأكلون مما كدوا وتعبوا، تقودهم الأيام كما تقود الريح ريشة طائشة... وقد يغتني بعضهم بطرق مشروعة أو غير مشروعة، فيلجأ الواحد منهم إلى التفكير في العودة إلى البادية بشكل آخر، يربي الأبقار والدواجن والخيول، وينتشي برائحة التربة العطرة... هؤلاء النازحون صوب الضواحي، يختارون أماكن قريبة من المدن، وقريبة من الطريق المعبدة، وقريبة من المياه الجوفية. والغريب أن امتداد هذه الضيعات يكون بشكل ثعباني يتلوى كما تتلوى الطريق المعبدة. وقد يلدغ في طريقه الكثير من الأراضي الفلاحية والكروم والأشجار المثمرة... عباس لا يفهم في مواضيع الهجرة، ولذلك كان يكتفي بالقول: "الرجوع إلى الأصل أصل..."، أما زوجته فقالت بنبرة حزينة: هؤلاء لا علاقة لهم بنا، يتطاولون في الجدران والأسيجة ثم يغلقون

أبوابهم الكبيرة في وجوهنا. وتلك عادة لم نعرفها نحن ولا آباؤنا من قبل... قبح الله الجفاف الذي دفع الفلاحين الصغار دفعا للتفريط في أرض أجدادهم مقابل مبالغ يصرفونها في شراء براريك بالأحياء الصفيحية. نحن لم نعد نفهم هذا العالم يا ولدي. أناس ينزحون من سعة فضاء إلى ضيقه بأحياء الصفيح بحثا عن الراحة، وأناس يهربون من صخب الضيق إلى هدوء البراري بحثا عن الراحة... وبين هؤلاء وهؤلاء، أتلفنا راحتنا، وأتلفنا طابع باديتنا القديمة وحكاياتها وأدواتها ومعجمها وعاداتها وتقاليدها... لم يعد الصغار يطلبون من جداتهم أن تحكي لهم تلك الحكايات القديمة، لقد أفسدت علينا الهواتف كل شيء يا ولدي..."خليني ساكتة"...

نزل الشاب الوسيم، وضع حقيبته على ظهره، شكر الزوجين وانصرف. تبعته الزوجة بعينيها وهي تحرك رأسها بشكل دائري وفمها يتمدد مقفلا في الاتجاهين استنكارا للطريقة التي يحمل بها الشاب حقيبته ثم قالت:

-" أيام أخرى هذه التي يحمل فيها الشبان حقائبهم على ظهورهم مثلما كانت النساء تفعل مع صغارهن... رد عباس: لكل جيل طريقته، نسأل الله حسن الخاتمة.

في تلك الأثناء كان صوت طفطافة شيخ القبيلة يملأ آفاق البلدة، خفف عباس من سرعة البغل بلجمه، التفت كي يرى الشيخ ويسلم عليه، كان أغلب البدويين يعكسون آداب السلام مع شيخ القبيلة، فيسلم الراجل منهم على الراكب، والجالس على الواقف، والمقيم على القادم... وكان ذلك بالنسبة لشيخ القبيلة أمرا واجبا، فقد كان يحبذ أن يلمس ذلك الخضوع منهم، والويل

لمن أخذته العزة بنفسه فخالف ذلك، حكى لنا الرداد، صاحب الحمارة المصبوغة والعهدة عليه، أن الباشا زمن الحماية كان يدخل قيسارية التازي، فإذا لم يقف أحد التجار ليؤدي التحية، أرسل في طلبه، وأجبره على دفع أتاوة ...لذلك كان عباس وغيره يتحاشون غضب الشيخ الذي يمنح شهادة الولادة وشهادة الخطوبة وشهادة الحياة وشهادة الوفاة وكل شهادة لا تجوز إلا بإذنه... بل إن كثيرا من الأهالي كانوا يتوددون إليه بالإبلاغ عن أدق تفاصيل الأحداث، حتى إنه كان يعرف ما تعجن كل امرأة وما تخبز... سلم عباس على شيخ القبيلة، توقف هذا الأخير، ودون أن يرد السلام، صار يتوعد عباس بأوخم العواقب قائلا:

- شفتك وليتي تدير عا لّي بغيتي؟ واش مابقى مخزن في البلاد؟ "
- مالي آ سعادة الشيخ آش درت؟
- آش درتي؟ هذاك الحجر لي حطيتي آش باغي ديريه حسوّة؟ رد بالك تبني شي حيط، والله حتى توصل قضيتك للرباط...
- كون هاني آسعادة الشيخ، والله ماندير حاجة بلا اخبارك، عشية ندوز عندك للخيمة...

بعد يومين كان عباس قد بنى ليلا بيتا داخل فناء الحوش، وقام بطلائه بسطل من الجير الأبيض. حضر شيخ القبيلة، أزبد وأرغى، وتوعد عباس بحكم قضائي قاسي، ثم انصرف بعد أن قام بتخويف الآخرين وأسمعهم ما أراد... تظاهر عباس بالخوف، لكنه كان يردد أمام ناس الدوار بأنه على استعداد لتحمل الأحكام سواء أكانت ذعيرة أو هدما. فهو مجبر على بناء بيت

يستطيع أن يُسكن فيه ابنه المقبل على الزواج...
بعد هدوء العاصفة، أكمل عباس الإصلاحات الداخلية، وشرع هو وزوجته في الإعداد للعرس، فإن فترة الأعراس تحل بحلول فصل الصيف وانتهاء موسم الحصاد...ترى هل يكون عرس نبيل على شاكلة أعراس القبيلة؟
تلك الأعراس في بلدتي، لم يكن لها في العالمين مثيل... مراسيم جلب الماء من البئر، يتجند لها شخصان أو ثلاثة، يملؤون البراميل المصفوفة حيال باب المنزل المفتوح على الدوام. يدخله العوام والهوام، دونما خشية أو تهيب، فما كان بالبيت حاسوب ولا هاتف أو حتى راديو "ترانزيستور" يُخشى عليه من السرقة... بنت الجيران كانت تعرف مكان الملح والخميرة والدقيق... العرس فرصة لتكسير فراغ الفراغ، حيث تدب حركة رجالٍ لم تجمعهم قبل ذلك غير حلقات لعب الورق، أو جلسات مج دخان السبسي... يتعاونون على بناء خيمة العرس المليئة بالغبار، وبصاق العصافير المزقزقة هناك فوق كرمة التين بمسجد القرية، إلى جوار مرفع الموتى...

يقوم شبان شداد من البلدة بنصب الخيمة الكبيرة على مسافة يسيرة من المنزل، فتعطي للأهالي إحساسا غريبا، تزيده شحناتٍ رائحةُ بخار الكسكس الفائر... فيتحسس الجميع بطونهم، ويغلقون أفواههم خشية انبعاث الريق. وإذ تميل شمس الظهيرة باتجاه الغروب، تتهيأ نسوة الدوار للقدوم ، وكلهن شوق لصوت طامو البراحة، قائدة فرقة الغناء النسوي البدوي، التي توزع المدح يمينا وشمالا، والأخريات يرددن خلفها اللازمات المتكررة. تجني من وراء

غنائها مداخيل تظفر منها بالقسط الأوفر، فتكون الفائزة بين كل الحاضرات: تغني وتطرب، تأكل وتشرب، تؤدي واجب " الغْرامة" لصاحبة العرس، وتُبقي بعض الدراهم في حزامها...

كاميرا المراقبة آنذاك، لم تكن سوى عين "محيجيبة" التي لا تخطئ صغيرة ولا كبيرة، ترصد الحركات والسكنات من فتحة شالها الصوفي القاتم، المليء برائحة الدخان المنبعث من أعواد الزيزفون المشتعلة، وبقع القطران الذي تضعه على مناخرها اتقاء الصرع... تتسلل بين الحين والحين، فتغادر منزل العرس صوب بيت العروس في السفح الآخر، فتنقل تفاصيل التفاصيل إلى من يهمها الأمر: أم العروس... وبعد أن تظفر بلقيمات من طبق البركوكش، تقفل عائدة وفي يدها قطعة صفراء دائرية من فئة خمسين فرنكا. أما أم العريس في الجهة المقابلة فتعلم الدور الذي قامت به "محيجيبة"، وتهمس في أذن جارتها المتأففة من رجوع الكاميرا قائلة: لا عليك، فأنا لا أقول أمامها إلا ما أرغب أن تقوله للآخرين...هكذا إذن كانت أم العروس تصبغ "محيجيبة" بكلام مزيف، وهي المصبوغة أصلا بالقطران وبقايا الزعفران على البنان، تتعب المسكينة ولا تحفل، تأكل ولا تغسل، وتحضر كل التجمعات ولا تبطل...

بعض الناس في بلدتي، كان مشهودا لهم بالنشاط الزائد... "عويمير بوراس"، شبيه الرّقّاص في زمن الباشوات، لا يكل ولا يمل من قضاء مآرب أهل العرس، يتنقل من مكان إلى آخر كنحلة لا يهدأ لها طنين... "شامة" طويلة القامة، الطباخة التي قهرت نيران الأفران، وقهرت كل النساء بسلطتها

وغطرستها، فلا تمدّهن بشيء من طعام إلا بعد أن تستوي الصحون، حتى وإن تضوّر صغارهن جوعا..." احميدة الفزغول"، "الفتى القافز" الذي يتحول الى "كراب" أو بائع خمر لعشاق عربدة الأعراس... "عباس شخشيخة" الذي يتكفل بزجر قفزات الصغار، وثني كل من يخرج عن جادة الأعراف... "سلّام الحتروف" الذي يتولى لجم بغلتي العريس ووزيره حين يركبان في جولة، يدعوان الناس إلى الحفل من الدواوير المجاورة... "ويْسّف المنغاز"، الذي يصاحب الشيخات في الرقص، ويضفي على الجمع نكهة فكاهية يستلطفها الجميع...

تميل شمس العصر، تتساوى كل الأشياء وظلالها، فينزوي الراعي "حميدان" في ركن يحاذي خيمة العرس، يجمع حوله شرذمة من المنقطعين عن الدراسة، ويستل كمنجته المصنوعة من سطل الزيت وظفيرة الحصان، فيشرع في العزف والغناء، مستعينا بتعريجة " ولد منانة"... ينضم بعض كبار القرية إلى الجمع، ويتقرب منه عشاق" السبسي"، فتكتمل البهجة بانضمام "فاطنة الهبيلة" إلى القوم... فذلكة فكاهية لا مثيل لها، لا تنفضّ إلا برجوع العريس ووزيره من جولة "العْراضة" ، حيث تبدأ طقوس أخرى... أحد الرعاة لا يفتأ يثني على كمنجة "حميدان"، بل يدعو الشبان إلى مساعدته على اقتناء كمان عصري، ولن يحتاجوا بعدها إلى تكاليف فرقة " الموتشو" أو"ولد محيجيبة"... هي الرغبة إذن في فذلكة مستمرة، تكسر جمود ليالي الصيف في القبيلة...

غير بعيد عن الأنظار قبيل الغروب، أصوات تعريجات قادمة من الخلف،

وامرأتان تدلفان بسرعة البرق إلى بيت العريس : يتهامس الجميع في أذن الجميع، إن خالة العروس قد جاءت بها على حين غرة، اتقاء السحر والعين... فدخلتا.

فرقة الموتشو الشهيرة، تحل على متن سيارة "الإيركات" يترجّل صاحبها مزهوا بنفسه، يفتح الأبواب للكوامانجي والشيخات، ويركنها خلف الخيمة، ثم يدخل صالة الضيوف بمنزل العريس حيث يُقدَّم طعام العشاء للفرقة الموسيقية، قبل أن تتحول إلى الخيمة المنصوبة. ينتظر الجميع أولى النغمات التي تُسَوّي أوتار الكمان، وأولى نقرات التعاريج التي يتولى "حميدان" تسخينها على نيران الأفران بعد تحييد البقاريج الزافرة... تتسامى الشيخات إزاء الحشود، وتبدو العيون مشدوهة صوب المشهد المثير لأعضاء الفرقة الموسيقية، قبل أن تخدر النغمات الأولى عقولا وأجسادا متعطشة للفرجة، فينشغل الجميع بالرقص والغناء، ويتسلل العريس وسط الحشد إلى بيت العروس، هناك حيث تقوم أخته الكبرى بدور حارسة الباب، فتأمر النساء داخل المنزل بالشروع في الغناء دون انقطاع، تغطية على كل صوت غريب... وأب العروس، لا يتبعها أبدا إلى بيتها الجديد ليلة العرس. يلزم بيته، يراقب زريبة الأغنام وباقي الحيوانات، وينتظر طرقات تمدّه بوجبة عشاء متأخرة، كما ينتظر انبلاج فجر تمتزج فيه صيحات الديكة وأهازيج الاحتفاء بعذرية ابنته

المحروسة... يتنفس الصعداء، ويتململ باحثا عن أكبر قطعة نقدية، يضعها في الصحن الأبيض المنقوع...ثم يستسلم بعد انصراف الجميع لنعاس مريح بعد أرق

مخيف... صباح العرس، يكشف الكثيرَ من البقايا المقززة والمضحكة: سكارى ينامون في جنبات الخيمة، وقد داهمتهم أشعة شمس حارقة... قنن زجاجية متراكمة خلف أفران الخبز الطينية... أداة تصبين حديدية لم تعد صالحة بسبب أرجل صويلح الغليظة... صمت مطبق، تكسره خطوات بنت مسعود وهي تعد وجبة الفطور بعينين حمراوتين، وأنف منتصب، وشفتين على وشك الانفجار... تنطلق أم العروس إلى بيتها صحبة عدد من جاراتها القريبات، وبعد ساعات تعدن محمّلات بطعام الفطور ، فتختار منه طبقا مميزا للعروسين، ثم تسلم الباقي لأم العريس... يفطر الجميع، ثم تبدأ الاستعدادات لحفل النساء بعد الزوال... بين طقس وآخر تتواصل الوشوشات والهمهمات، ويبقى الانتظار سيد المواقف...

مميزةً عن غيرها، أم العريس ، وهي تستقبل النساء الوافدات على الحفل النسوي ، تربط إلى ظهرها غربالا على صورة رضيع، في إشارة تفاؤلية إلى خصوبة العروسين... نساء القبيلة تصطحبن بناتهن المقبلات على الزواج، تنتظرن تحفيزات البراحة من أجل إبراز مفاتنهن أثناء الرقص، وفي ذلك استعراض يستميل عيون وقلوب الأمهات الراغبات في تزويج أولادهن... فريق النساء المغنيات لا يأبه سوى بجمع ما تيسر من دراهم، مقابل أغنيات مكرورة، تُعدّد مزايا الرجال والنساء على السواء... الطباخة "بنت مسعود" ، لم يعد يهزها غناء ولا مديح، تقف بعيدة هناك قرب الفرن الكبير، تحرك

رأسها في استخفاف واستنكار، كلما سمعت الفرقة تمدح أحد صعاليك البلدة

مقابل درهم مغبون. لحظة (الغرامة)، هي الطقس المرتقب المنشود من قبل والدة العريس، إذ تجلس منتبهة مُلوّحة برأسها في امتنان، آملة أن تسعفها ذاكرتها في تسجيل المبالغ التي أهدتها إياها النساء. وبعد انتهاء الغرامة، تنزع ربة العرس غربالها لتحمل بدله ما جمعته البراحة من قطع وأوراق نقدية...
وتكون وجبة الطعام المتأخرة هي آخر طقس من طقوس العرس، تتجاذب أثناءه النساء أطراف الكسكس والحديث، على أمل اللقاء في عرس آخر...يغيب العريس عن أنظار شبان القبيلة أسبوعا كاملا، لا يبرح بيته وعروسه، ثم يهل عليهم في حلقات لعب الورق، فتكثر التعاليق والتصفيقات، ويقوم الجميع ليسلموا عليه، فيقول أحدهم: " لي بْلّلك يرشّنا" ...

خلال فترة الأعراس يكون عباس وأمثاله قد أخلفوا موعدهم مع عدد من الأسواق المتعاقبة، وهي مناسبة يكونون قد جددوا فيها شوقهم للأسواق وأهلها...بينما تكون أم العريس في امتحان آخر مع زوجة ابنها، تلك القادمة الغريبة التي تكتشف عالما آخر من السلوك والمعاملات، وتحاول التأقلم مع وسط جديد، مليء بالاختلاف عما عاشته في بيت أهلها... وتلك قصة أخرى... يتساءل الكاتب وهو يستعرض طقوس العرس البدوي قائلا:

ترى هل يكون عرس نبيل ونبيلة على ذات النسق؟

يحاول راوي الرواة أن ينبهه إلى عدم الانغماس في صداع الأعراس والانشغال بها عن حكاية الأسواق. أنهره بالتساؤل: وهل انبعث صوت نبيل ونبيلة إلا من جوف الأسواق؟ فيصمت.

وكما الأسواق، لا تمر الأعراس دون سخط الكثيرات والكثيرين، إذ لا يتأتى

لأهل العرس إرضاء الجميع. بل إن عدم استئناس الناس في البوادي بتلك الأجواء، يجعلهم أكثر حساسية وانزعاجا من كل شيء: قد تستفزهم نظرة غير مقصودة، أو حركة عابرة محدودة، أو كلمة طائشة مردودة... فتكثر الشكايات والمظالم، وقد يصيب لهيبها كل مظلوم أو ظالم...

ينادي عباس على زوجته بصوت عال، فتأتي مسرعة وفي يدها بعض الحبوب التي كانت تعتزم تشتيتها بجانب الخم للدجاج، ثم تقول:

- مابك؟ لقد أفزعتني يا رجل...

- كنت أعتقد أنك خارج المنزل، أريد أن أخبرك أنني سأستأنف نشاطي غدا صباحا بحول الله، وستكون البداية من سوق " الجمعة" ...

- "شايلاه آسوق الصالحين"

ثم انصرفت صوب الخم، ترسل صوتا يجلب الدجاج الجائع، الذي ألف أكلة المساء ، فهي تكمل ملء حواصله قبل أن ينام.

كانت الحملة الانتخابية على أشدها، وهي في الأسواق على غير ماهي عليه فيما سواها، لأول مرة تتهاطل الأوراق من السماء، فيصرخ مسعود الأهبل: "كون غا كانت فلوس"... لم يعد الصراع خفيا، بل وصل الأمر بين المتنافسيْن الرئيسيين حد التهديد بالقتل. حين تصل الأمور إلى هذا المستوى، تتحول الديموقراطية في أفهام العوام إلى فوضى... يدرك عباس بخبرة السنين أن الغد

سيكون حاسما في استمالة كفة مرشح على أخرى، ويتمنى أن تميل لصالح المرشح المفضل لديه، وإن كان أفضل المرشحين لديه هو جيبه. كان يعلم أنه لن يستفيد من ذلك المرشح كثيرا، لكنه كغيره من التجار يجدونه بجانبهم

في المواقف الصعبة، خصوصا عندما تتعسف السلطات الإدارية في اتخاذ قرارات تمس بمصالح التجار والحرفيين...كان عباس من بين المنتفعين خلال الحملة الانتخابية، كل الولائم داخل السوق، من براريد واسفنج وشواء وطواجين على نفقة المرشح في الخفاء. تدعم الدولة الأحزاب كي تغطي مصاريف الحملات الانتخابية ولوازمها، وتدعم الأحزاب مرشحيها، ويدعم المرشحون أنصارهم المقربين... وتراوح الصناديق مكانها حتى تعلن النتائج، وتراوح الخلافات مكانها حتى تقضي المحاكم في نزاعات لا حصر لها، لا أحد يتقبل الهزيمة...

استحالت خيمة عباس مكتبا لتوزيع ما يشبه الإعانات سرّاً، ترتاده الواحدة من النساء فتخبر جارتها أو قريبتها، فيتوالى تعريجهن على الخيمة، تخبر الأوليات التاليات، ويخبر الأولون التابعين، فيوزع عباس مما أعطاه صاحبه، وقد يضيف لبعض المهيمنات والمهيمنين قوالب سكر، تذكرهم حلاوته بالوعد الموعود. عباس نفسه الذي دخل غمار الحملات الانتخابية كان يدرك ألاعيب المرشحين، فكان يقنع نفسه بضرورة استغلال الفرصة للحصول على أكبر قدر من المال. من أجل ذلك حدثه شيطانه باللعب على حبلين متناقضين، فكان يتعامل مع مرشحين متعارضين، لا يعلم الواحد علاقته بالآخر. كانت له طريقته في استمالة المصوتين، يسألهم عن المرشح المفضل لديهم، فيمدحه مدحا ويبلغهم

عطفه ورضاه عنهم، ثم يسلمهم مما سلمه، ويطلب منهم الكتمان... لكن أحاديث القوم ذات شجون وظنون، واللعب مع الكبار بالأخطار مقرون... نصبوا له كمينا، فقبضوا عليه متلبسا بمساندة ناخبين متنافسين، يضرب الواحد

بالآخر، فأشبعوه جلدا حتى أصبح لحم ظهره ألين من لحم بطنه...فكانت فضيحته بسوق الثلاث "فضيحة بجلاجل"

جمع جيرانه خيمته، أركبوه عربته، وكلفوا أحد الشبان أن يصحبه إلى منزله. عانى في طريق عودته الأمرّين، وقضى ليلة عصيبة من شدة الألم، تعاتبه زوجته وهي تبدل الكمادات على ظهره قائلة:

- "عيت معك ما بغيتيش تفرق عليك الانتخامات"

-..... آآآآآح آ ميمتي

- "هانتا بقيتي حتى جبتيها في ضلوعك"

زاره الرداد مواسيا، لكنه سرعان ما غير حديثه من صيغة الجد والمواساة إلى صيغة السخرية والتنمر... فلطالما عانى الرداد من سخرية عباس بسبب الحمارة المصبوغة، حان الوقت لرد الصاع صاعين، فأفضل لحظة للانتقام لدى الجبناء هي لحظة ضعف العدو. لكن عباس لم يكن عدوا للرداد، لكن الرداد يعلم أن لا قدرة له على مجاراة عباس والنيل منه سخرية واستهزاء إلا في حالة ضعفه تلك ...كان عباس لا يستقر على جنب، يتقلب يمينا وشمالا. أزاح الرداد الغطاء عن ظهره كي يرى آثار الضرب المبرح، فلم يتمالك نفسه من الضحك

وقال:

-"صبغوك اولاد الحرام"، لقد فعلوا بك ما يفعله صباغو الحمير بالحمير ... انفجرت زوجة عباس ضاحكة، فهي تعلم قدرة الرداد على السخرية والإضحاك... يئن عباس أنينا دون أن يرد على الرداد، فهو غير قادر على

مجاراة هذا النزق الشرير كما كان يصفه باستمرار. حاول الرداد تلطيف الأجواء ورفع معنويات عباس فأضاف:

- الحمد لله جات غا في ظهرك، كون قتلوا ليك البغل...

تململ عباس ثم قال: ما شافوهش، كان ورا الخيمة...

مثل هذا الكلام قد يبدو غريبا لدى البعض، لكنه بالنسبة للفلاحين منطقي أو على الأقل مقبول: إن الواحد منهم يتمنى أن يصاب في بدنه على أن تصاب بقرته أو حصانه أو بغله...وأن الواحد منهم يصرف على علف المواشي أضعاف ما يصرف على أهل بيته، وأن منهم من يقدم نقل بهيمة مريضة إلى طبيب بيطري على تطبيب نفسه...

لم يكن ما حصل لعباس خلال الحملة الانتخابية أول ولا آخر كوارثها، بل تعددت المناوشات و الشكايات والمحاكمات ... بقي الرداد يتردد على عباس كل يوم أو يومين، يسأل عن أحواله، ويقضي بعض أغراضه الخارجية، وحين رأى عبر شاشة التلفاز صورة المرشح الناجح في قبة البرلمان، قال لعباس: انظر

إليه بجلبابه الأبيض النظيف، لقد غسل ما تطاير عليه من دمائك ودماء أمثالك... تتعدد آلات التصبين وأنواع الصباغة والطلاء وأشكال الرسم والتلوين، وتبقى الصباغة واحدة... قبح الله السياسة...

كان عباس يعلم أن عودته إلى الأسواق سوف تكون عسيرة، سوف تنهال عليه الأسئلة والتعاليق والتهكمات من كل ناحية. لقد أضحى بامتياز مثار سخرية التجار والحرفيين ... مرة بسبب خيمته القديمة، ومرة بسبب خدماته

المشبوهة للزبائن، ومرة بسبب تورطه في حرب الانتخابات... قرر المسكين ألا يكثر الردود على المتنمرين، وأن يحني ظهره حتى تهدأ العاصفة. هو يدرك تماما أن ما حصل كان بسبب طمعه الزائد، ورغبته اغتنام الفرصة واللعب على حبلين متناقضين ابتغاء كسب مزدوج، لكن عيون الطيور الجارحة كانت له بالمرصاد. ورغم ذلك فهو لا يفتأ يقول:

- "إن النسور ذات المخالب لا تبيت بلا عشاء"، فمن لم تصب ظهره وأطرافه أصابت منه جيوبه. وسواء كنا ناخبين أو منتخبين فكلانا يصارع من أجل صباغة الآخر بما لديه من طلاء... إنها على حد تعبير الرداد: " طلية القرن" ألم يسمّها عالم المستقبليات"المهدي المنجرة" بالذلقراطية؟

احتدم النقاش بين برلمانيين، وتحول إلى تنابز بالألقاب والفضائح، ثم إلى تشابك بالأيادي، فبدا المشهد مثل مسرحية محبوكة الفصول والإخراج ... فقال الرداد مازحا: ألا ترى معي يا عباس أن بداية هذا الصراع كانت من السوق؟؟؟ من يسيطر على وسط الميدان يربح المباراة، ومن يسيطر على السوق يشرّع القوانين ... وقد ينفّد الأحكام وزيرا أو رئيسا للحكومة...

تحسس عباس آلام ظهره من جديد، فطلب من الرداد أن يغير القناة أو يسكت التلفاز تماما...

طرقات قوية هزت باب منزل عباس، دلف منه شاب قوي عريض المنكبين، ودون أن يسلم قال: أمامك يا عباس يوم واحد كي تعيد إلى "الرايس" المبلغ الذي سلمك في الحملة الانتخابية وإلا سيدفع الشيك الذي بحوزته إلى المحكمة...

رد عباس مرعوبا: ولكنني وزعت المال كما أمرني...

- لكنك كنت خائنا أيها المخادع، "بغيتي تاكل التفاحة وتركب على العود..."

انصرف الشاب، وانكمش عباس مرتجفا، يتمنى لو يكون ما سمعه مجرد كابوس مرعب... فرك عينيه، وعض أصابعه ندما، ثم نادى على زوجته، أمرها أن تستخرج المال من الصوان، أعطى للرداد المبلغ المطلوب، وأمره بتسليمه لصاحبه يدا بيد. ومع ذلك بات ذهنه مشوشا حتى أكمل الرداد المهمة بنجاح... حلف عباس بأغلظ الأيمان ألا يزور سوق الثلاث قط، وأن يستبدله بسوق آخر فيما بعد...ونذر نذرا ألا يترك صلاة الجمعة إلا لعذر قاهر... وأن يقضي ما فاته من كفّارات اليمين...وأن... وأن...

كان أخو عباس الفقيه مسافرا في إحدى جولاته للزوايا، لا يفارق زمرته من أهل الذكر والمديح، يضع سبحته حول عنقه، تبدو خَرَزاتها الكبيرة المتراصة

مثل ثعبان تمدد على صفحة صدره المنفوخ، ولحيته البيضاء مرسومة على شكل نصف دائري دقيق، وشفتاه تتحركان باستمرار... لم يستسغ ما سمعه عن أخيه، فدخل عليه عائدا عاذلا:

كيف حالك يا ابن أمي وأبي؟

الحمد لله، هذا ما كتب الله...

-أما والله لقد تجاوزت بفعلتك أحذق الشياطين. ألا يكفيك ما تفعله شياطين الجن والانس في الأسواق؟
أما والله لولا ضرورة اقتناء الأغراض لامتنعت عن دخول الأسواق، فإن كان ولابد، دخلتها ذاكرا حبا في استزادة الحسنات وطرح السيئات امتثالا لحديث سيد الأولين والآخرين، ثم تلا نص الحديث الشريف:(من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير) كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة. كل هذا الخير، بدل الخوض فيما خضت فيه يا ابن أبي وأمي... فمتى كان لنا في السياسة دخل أو نصيب؟

ظل عباس واجما، وعيناه ترفرفان كجناحي فراشة تحوم حول نار شمعة توشك أن تحرقها.
تدخلت زوجة عباس تحاول تلطيف الأجواء، ولولا أن رأى الفقيه صينية

الشاي وطبق الرغيف الساخن، مصحوبا بزبدة وعسل، ما سكت...
حوقل من جديد، وهي تصب على يديه الماء يغسلها في طَسْت لامع،
فتبدلت لهجته، وأخذ يلعن الشيطان ويحمّله وزر أخيه ووزر كل مخطىء ...
ثم التفت إلى زوجة أخيه وقال ساخرا مبتسما:
هذا نصيبك من عائلتنا الموقرة، أخي هو البيضة "الخامجة" وسط بيض العائلة.
ضحكت المسكينة شامتة، فهي لا توافق زوجها مطلقا على تصرفات من هذا القبيل...
نطق عباس أخيرا وقد طفح به كيل ما تفوّه به أخوه فقال: " حتى زين ما خطاتو لولا"
كان يغمز بكلامه من قناة الفقيه ، فقد زعموا أن هذا الأخير فوجىء ذات يوم بإحدى الدواوير وهو يختبىء رفقة امرأة متسللة، ففر هاربا في الظلام، ولولا كروم التين التي أتلفت أثره لأشبعوه ضربا ورفسا...
أسرّها الفقيه في نفسه، ولم يبد ردة فعل، بل واصل كلامه في هدوء فقال :
-جدّنا لم يوص عبثا بالحفاظ على الخيمة إذ قال ؛
-لا تفرطوا في الخيمة وإن قدُمت... فإن كان لابد من استبدالها، فاحتفظوا منها بقطعة، رتّقوها على ظهر الخيمة الجديدة...
لقد حافظتَ يا عباس على شكل الخيمة، لكنك لم ولن تدرك المغزى من كلام جدنا المرحوم...
الخيمة كلها خير وبركة، أكلنا وشربنا من تجارتها، حمتنا من حر الصيف وقر

الشتاء ، ولكن الطمع طاعون، و " المغطي بالسياسة عريان". فالسياسة إن حصنت صاحبها من السجن ومن أداء الضرائب، فهي لا تمنع عنه أمطار اللعنات ودعوات المظلومين... أضافت زوجة عباس...يكفينا صراع الأسواق، لقد فقد الرداد ثقته في الجميع حين صبغوا حمارته، أصبح يدخل من باب السوق متوجسا خائفا، يضع يده على جيوبه بين لحظة وأخرى، يراقب عبور بدوي أخذته العزة بالاثم، لا يبالي دعوات الآخرين إياه بتقوى الله في دابته، يضربها ضربا، بل يدمي ظهرها بمبراغ حديدي كي تخفّ المسير... يتابع بعينيه راكب حصان لم تشف غليله مباريات التبوريدة في موسم بارد، فجاء يستعرض عضلات حصانه ويستجدي تصفيقات ساخرة من الأهالي، وليته ما فعل. يلاطف باعة الحمص والفول ويغرف من كل قفة دون أن يمنعه أحد، يتذوق حلويات من بائع الحلوى، ويتسلم تمرات تحلية من بائع الفواكه الجافة، يغازل بائعة البيض التي تنهال عليه بكلامها الساقط، يسأل عن أثمنة الحبوب في "رحبة الزرع" وأثمنة الدلاء والغرابيل والتعاريج وأثمنة الزبدة والسمن والزيوت ، وأثمنة الأقمشة والألبسة والمواد الغذائية... كل ذلك أو يزيد، وهو لا يعرف لماذا يسأل دون أن يشتري، وكلما تبرم مرافقوه مما يفعل كان يجيبهم: معرفة الأشياء خير من جهلها...أومأ الرداد برأسه موافقا على كلام الفقيه، ثم قال: صح، معرفة الأشياء خير من جهلها. كانت زوجة الرداد جالسة بجانب زوجة عباس فهمهمت قائلة :"عرفتي تاعيتي وباعوا ليك حمارتك"(يضحكون) كان يدعي بين أقرانه في الدوار أنه صديق المخزن، وربما كان يحرص على معرفة

الأثمنة وما يصاحبها من كلام، كي لا يعجزه سؤال من أهل الوقت. الغريب أنهم لم يساعدوه للقبض على من باعه أتانه... بل كان شيخ القبيلة ينعته بلقب "بوحمارة"

يجول السوق برمته، لا يهدأ له بال، قبل أن يحط الرحال بمقهى السمك المقلي، يأكل ما تيسر ويريح قدميه، ثم يتوجه صوب حلقات الفرجة حيث يسرح طويلا مع حكايات " البهجة" صاحب الصوت المبحوح إذ يقول:

(الماريكان والروس طلعوا للقمر، وحنا العيالات عندنا طيحوا النجوم ليلة العواشر...)

فيتحول إلى حلقة "الطيمومي" الملقب ب "كْرِيكْر" ليتابع شرحه (الأكاديمي) للخطوط والرموز المرسومة على التراب أو على الإسفلت بالطباشير الأبيض... كان الطيمومي يفك طلاسمه التي تبدو كالحياة وأسرارها لدى الكثيرين، الخوف يستولي على عقول الصغار والكبار، والجهل لم تنفع معه إشارات الفنار. قد نحتاج سنوات ضوئية كي نلحق بركب الفخار...

أما " الدكالي" فلم تكن له حلقة أو مكان معلوم، فهو فكاهي جوال، يلقي على الناس أزجاله أينما حل وارتحل، يستثير إعجابهم فيغدقون عليه مما لديهم، غير أنه يدعي دوما الخسارة يقول:" ما بقى في الدنيا رباح، أنا كنبيع غا الكلام وخاسر فيه..."

-وكذلك حالك أيها الكاتب المغمور (يقهقه راوي الرواة شامتا)

أما حلقة زعطوط فتلك حكاية أخرى، لا ينسى الرداد يوم أخبر زعطوط المتفرجين أن كلبته قد ولدت جراء، وأنها في حالة نفاس بسطح المنزل، وأنه

يحتاج مالاً يُقيم به وليمة تَريدٍ... اتفق بعض المتفرجين أن يزوروه في منزله مباركين له ولادة الجراء. سلموه قوالب سكر، واستضافهم بكل حفاوة. وبعد شرب الشاي وأكل الحلويات، طلب منهم أن يصعدوا إلى سطح المنزل لرؤية الجراء. صعدوا ضاحكين مستهزئين، ووقفوا ينظرون إليه وهو يربت على شعر الكلبة ويلومها قائلا: (كاع ما كلتي ليا بلي عندك فاميلة كبيرة يا العفريتة...). انفجر الجميع ضاحكين محاولين مواراة خجلهم، فقد أصابهم رده الآني في مقتل...

...صار الرداد على قناعة تامة بأن الناس في الأسواق بين صابغ أو مصبوغ، وكما أن المصائب لا تأتي فرادى، فإن امتناع البغل عن الأكل زاد من آلام عباس وأحزانه، لقد نسي نفسه، وقام يجر رجليه الثقيلتين كي يرى ما حصل للبغل...

أرسل ابنته الصغرى في طلب الرداد، سلمه مبلغا من المال، وأمره بضرورة إحضار طبيب بيطري. تبين بعد الفحص أن حالة البغل ميئوس منها، وأن البحث عن بديل له أصبح أمرا ضروريا... لم يستسغ عباس الأمر، فقد قضى برفقته أكثر من عشرين عاما، ولم يدُر في خلَده أن يفارقه أبدا... لكنها سنة الحياة. رفض عباس أن يرمي جثة البغل فريسة للكلاب، فأمر الرداد بدفنه في حفرة عميقة، وحرص بنفسه على حمايتها من نبش الكلاب، حتى أدرك بمرور الأيام أنها تحللت، وأن الوصول إليها من قبل الكلاب بات مستحيلا. ربما كان ذلك عربون وفاء لبغل صبور...

أصبح همّ عباس أن يشتري بغلا آخر، قبل أن يعود لبناء الخيمة في الأسواق من جديد. ورفض أن يصحبه الرداد إلى سوق البغال والحمير، خشية أن

يوقعه في مطب آخر...
تملّكه خوف شديد، لأن عملية شراء البهائم محفوفة بالمغامرة...توكل على الله، ودخل إلى " رحبة الرّامّة"، فتمكن من شراء بغل شبيه ببغله القديم، ومنّى نفسه أن يكون أكثر حذاقة وأيسر ترويضا...
تتعرض ابنة عباس لوعكة صحية، فيضطر مرة أخرى للابتعاد عن أسواق القرى، ويتجه بها صوب المدينة العملاقة، يحتمي ببعض معارفه الذين آووه و ساعدوه ، وكانوا له الدليل والأنيس في أوقات عصيبة. مرت الأزمة بسلام، وقبل أن يقفل عائدا ، أخذه ابن عمته إلى مقهى بالمدينة، أحس كأنما يغرق في بحر العمارات الشاهقة، ينطق بعضها بلغة الحماية، وبعضها الآخر بالتجدد والصباغات الحديثة... ثمن كأس القهوة يعادل ثمن أربعة براريد في السوق، الطرامواي يدب دبيب الثعابين الحمراء، وخليط من الألوان والأجناس البشرية، بيض وصفر وسود، وخليط بين البياض والسواد والاصفرار، ولافتات هنا وهناك، وأضواء لا تنتهي، وعابرون بألبسة أنيقة يتجهون رأسا صوب أهدافهم،و باعة متجولون يحملون سلعا متنوعة، وأطفال يتسكعون بمناديل ورقية للبيع،و عربات صغيرة عليها سطل حلويات شفاف للبيع، و شابة سمينة هتماء تساعد الركاب على اقتناء تذاكر الطرامواي مقابل دراهم... وشباب بزي شركات الهاتف النقال، يروّجون لبطاقات أرقام وتعبئات... ومفتشو شرطة يضبطون بعض المخالفات ويتأكدون من هوية من يشكّون في أمرهم، يزجون بالبعض في " الفاركونيت"... وعيون فتيات متبرجات

تترصد المارة دون أن ترف لها الجفون... جلبة لا تنتهي، أصوات تعلو وتخف كأمواج البحر... بلع عباس لسانه، وعيناه تدوران في رأسه كالمعتوه... التفت إلى ابن عمه وقال:

-"واااسوووووق آآآخر عندكم هنا "

- لا تنقصه إلا العربات والبغال

ضحك ابن عمه، وضحك عباس نصف ضحكة، ثم أضاف: لكن السوق يا ابن عمي غير السوق، وأهل البدو غير أهل الحضر، قد يحتدم الصراع، ويظل البدو أشد كفرا ونفاقا. كان أهل المدينة يشفقون من حال أهل البادية، فترى الرجل منهم يشتري لصاحبه أبقارا أو أغناما كي ينتفعا معا، فما لبث البدو أن أعماهم الطمع، فاستحوذوا على الغنيمة، ولما تكرر الغدر والاستحواذ، أصبح أهل المدينة لايثقون بالبدو، فحرموهم من المساعدة ... وإن أغرب ما رأيت أن يشتري رجل من المدينة مائة رأس من الغنم، فيعهد بتسمينها لفلاح، فيعمد هذا الأخير إلى بيع الأكباش السمينة، وتعويضها بأكباش أقل منها ثمنا في غياب صاحبها، حتى إذا تفقد صاحب الغنم غنمه، وجدها بنفس العدد، ويكون

بذلك قد سُرق بطريقة شيطانية خطيرة... وتلك يا ابن أخي صباغة أخرى... كيف يستوعب عباس كل تلك التحولات المتوالية، كيف يتحمل عبء الوساوس التي طردت نومه وراحته المألوفة بالأسواق؟ وكيف ستؤول الأمور بعد محو آثار الحي الصفيحي واختفاء مصدر دخله الإضافي من كراء العربتين ؟

تتلاطم بذهنه تهيؤات تُرجع الأمر إلى لعنة
"عبوش" وتهيؤات تعتبر الأمر عينا أو سحرا مقيتا... فكثيرا ما سمع من أخيه الفقيه قوله: فكما أن الحسنات يذهبن السيئات، فإن المعاصي تزيل النعم.....
أجهد نفسه وهو في طريق العودة صحبة ابنته من الدار البيضاء، كي يتناسى كل الوساوس، ويستأنف نشاطه رفقة بغله الجديد، وعزم على بيع العربتين و قطع علاقته بالحي الصفيحي الذي يختفي شيئا فشيئا... وتزحف المخاوف في الأحشاء زحف العقار على الدمار...وتستفحل الأزمات في غياب البدائل... العالم على صفيح ساخن، العمالقة يكشرون عن أنيابهم ، ويتدافعون بسواعد الآخرين... هذا الحاضر الذي كان مستقبلا في الماضي، وكنا نستعجل قدومه، بات كابوسا، وبتنا نحنّ إلى الأسواق القديمة، ونسميها ماضيا جميلا... هل تغيرت الأسواق، أم تغير الإنسان بداخلنا؟
يزعم الرداد وهو يناقش جمع الأهالي قرب الشجرة، أن الربيع العربي كان بداية التمهيد للنظام العالمي الجديد بقطب وحيد، وأن "البروڤا" أو التمرين الأول للأمر والنهي كان إعلان الحرب على وباء مجهول الهوية والدواء، وأن الناس لم تعرف قبله زراعة الخوف التي عششت في الأذهان ... ثم يسأل عامر، الرجل المسن، عما وصل إليه الحال، وعما إذا كان السابقون قد عاشوا مثل هذا الحدث الرهيب، فيجيب عامر بصوته الهادىء:
...ما شفتو والو
أما ما تعرض له العالم زمن كورونا، فتحول إلى سجن كبير تساوى فيه السجين والسجان، فلم نشهد له مثيلا من قبل... وأما عن خطورة الوباء، فقد عشنا

زمن الطاعون، فكنا نشيّع الميت إلى قبره ونعود إلى البلدة فيخبروننا عن ميت آخر، وكنا ندفن العشرة أو أكثر في يوم واحد... واستفحل الداء حتى كاد يقضي على سلالتنا...

بعد صمت طويل، ينفجر المكي في وجه الرداد ساخرا:

آش قربك تهدر في شي سياسة آالمسيخيط ؟

...يقول الرداد: حنا غا داوين

يذكر عباس أنه أتلف البوصلة حين خلت الأسواق من روادها، كانت حياتَه الأسواقُ...

وحين عاد إليها، ظل تائها يبحث عن نفسه، عن مزاجه، عن فرحته المسروقة، عن كلماته التي تبدل مغزاها، عن أشياء كثيرة لا يعرف لها تفسيرا...

كيف أفهم، أنا الكاتب، بل كيف أقنع راوي الرواة بمقولة جدي:" لكي تكون مواطنا صالحا، عليك أن تعشق الأسواق في بلدي"؟؟؟

لم يعد بمقدوري اختيار الأسواق التي أريد، والبضائع التي أريد، والمزارع التي أريد... هجمت الأسواق الرخامية على الدكاكين، وهجم كبار الفلاحين على صغارهم، وهجمت زراعات التصدير على الزراعات الغذائية، وهجم المنعشون العقاريون على الملاك، وهجم الجفاف على مياه السواقي والآبار، وهجمت الصحون المقعرة على قاعات السينما وعلى حلقات الفرجة، وهجمت الهواتف الذكية على الذكاء والحشمة... السوق الوحيدة التي بإمكاني دخولها هي سوق

راسي... ومع ذلك يستفزني كلامهم... أصبح من الصعب أن تمشي بجانب الحائط، وأن تدخل سوق نفسك حتى، يستفزونك حتى يعرفوا معدنك...
...صمتك يا عباس ضوضاء و"قوقة " في رؤوسهم...
الجلوس على الهوامش مدعاة للتعاليق السخيفة، وأول الهوامش أسواق القرى، وآخرها قارعة الطريق في البلدة، وتتبع عورات المارة... وشر العورات الهواتف، تحولات رهيبة، تفوق قدرة عباس على استيعاب ما يجري... هو الذي لم ولن يستسيغ اختفاء فاكهة الصبار (الهندي)... مهما عددوا من أسباب ومسببات... لقد كانت غذاء مجانيا للدراويش خلال فصل الصيف، يكتفي الواحد منهم(بالخبز والكرموس) كوجبة أساسية كافية ومنعشة...
شكّل الصّبّار على الدوام أسيجة طبيعية، وحدوداً فاصلة بين حقول الأهالي، ووجاء للبساتين ذات الكروم المتنوعة...
يسخر الرداد من القوم قائلا:
إنها "الرأس- مالية" ... تمسك بزمام الأسواق والأبواق، تدهس الأنساق والأخلاق، ولا تُجارى إلا بالشقاق أو النفاق...
فسلام على سوقنا الممتد عبر مساحات قلوبنا
وسلام على سوقنا المملوء والمجزوء من أكبادنا
وسلام على سوقنا المصبوغ والمنسوخ في أعماقنا
كل هذا، وزوجة عباس منشغلة بعروس ابنها البكر، لا تفتأ تذكّر زوجها بضرورة مصاحبته إلى السوق لشراء " التفكيرة" وهي عبارة عن ثوب للعروس المقبلة، عربون تذكير بأن الاتفاق على الزواج لا يزال ساري المفعول.

وعكسه تماما يكون تفويت مناسبة الأعياد دون "تفكيرة" دلالة على التراخي أو التراجع المحتمل... يدرك عباس إصرار زوجته على ذلك رغم غيابه عن الأسواق لأسباب تعرفها ولا تأبه بها...فهي لا تتحمل القيل والقال وكثرة السؤال، ونسوة الدوار حاذقات في القيل والقال، ملحاحات في السؤال عن مواعيد الأعراس، مواضيعهن لا تبرح أخبار المناسبات بين ختان أو عقيقة أو زواج أو وليمة صدقة أو "قديدة"، وهي وليمة يتم خلالها إعداد كسكس بالقديد تيمنا وتبركا، فهن يعتقدن أن جمع (سبع قديدات) من (سبع أسر) كفيل بتيسير الحمل لدى من ترغب في الإنجاب...

عاد عباس يحاول لملمة أشلاء عربته التي بات يراها حزينة على فراق البغل، ويلملم معها أشلاء الأحاسيس المضطربة في ظل هذا التراجع العالمي الخطير الذي ينذر بعواقب غير معلومة... وباء يضرب العالم من أقصاه إلى أقصاه، ويفقد الناس قدرتهم على الحركة، ويقلل فرص العمل، ويحد من وتيرات النمو ... حروب تستعر هنا وهناك، في سوريا واليمن وفلسطين وأوكرانيا وغيرها ...جفاف حاد يضرب أغلب بقاع العالم ونقص يتزايد في المياه الجوفية، أسعار تلهب جيوب المستضعفين، أسواق يتعالى عويلها ونواحها على وقع نباح الكلاب الضالة، وفرقعات حوافر البغال فوق الإسفلت، وزعيق محركات دراجات نارية بلا كاتمات الصوت... كل هذا وبغل عباس يموت، وبنته تصاب بمرض غريب، وعربتاه في طريقهما للبيع والبوار، وجَلْد على ظهره جراء خطإ انتخابي جسيم... كل هذا ولا سبيل لك يا عباس غير

الصبر، ولملمة الجراح ثم العودة إلى الأسواق من جديد...
نادى عباس ابنه نبيل، وكان لا يصحبه إلى الأسواق إلا نادرا، ألح عليه بضرورة مرافقته إلى سوق السبت، وأقنعه بأن يتعود على الذهاب إلى الأسواق، ويتعلم كيف يتعامل مع الناس، فهو الآن في سن تسمح له بأخذ زمام الخيمة وتحمل مسؤولية التجارة، خصوصا بعد أن أحس عباس بتراجع قوته البدنية، وتغير كثير من الأمور في الأسواق... كان يقول للرداد مرارا : (ما بقى ما يعجب)، وكان الرداد يرد بالقول: لا تخلو أمة الحبيب من الخير... فيقولان معا : صلى الله عليه وسلم...
في الطريق إلى السوق، أخذ عباس يجس نبض ابنه نبيل، محاولا معرفة رأيه في مسألة تأجيل العرس، معللا اقتراحه بالظرفية الصعبة والجفاف وموت البغل ومرض البنت وغلاء الأسعار المرتبطة بحرب الروس على أوكرانيا...
غمغم نبيل وهو يقول:
- وليتي كتدوي بحال رئيس الحكومة. آش قرب العرس لأوكرانيا...
صمت عباس برهة، ثم حاول تهدئة ابنه مبتسما:
- راه أحسن فترة هي فترة الخطوبة، مالك زربان آصاحبي ؟
- حتى عرفوها الجيران والعزارى في الدوار عاد بغيتي تأجل العرس، آش غانقول ليهم ؟
- صافي آسيدي مابغتيش غا نبيع الثور السوق الجاي وندیرو العرس...
حين بنوا خيمتهم في سوق السبت، وبسطوا سلعتهم بداخلها وأمامها، طلبا كالعادة صينية شاي من المقهى المجاور، وما كاد عباس يصب الكأس الأولى

حتى كان الرداد واقفا أمام باب الخيمة.
قال عباس: ادخل آ العفريت، ضارباك امك برابوز...
أفطر نبيل واستأذن أباه للذهاب إلى خيمة الحلاق.
التفت عباس إلى الرداد وقال له: البعلوك مابغاش يأجل العرس...
رد الرداد: قلتها لك. اولاد اليوم راسهم سخون... لكن كل شيء على الله.
أتذكر يا عباس أن والدي رحمة الله عليه قد زوجني في عام الجفاف سنة 1981؟ في ذلك العام جاعت البهائم، فكنا نساعد البقرات على النهوض صباحا بواسطة عمود المحراث الخشبي، فشلت قوائم البقرات حتى عجزت عن القيام. أما الحمير فهامت على وجهها في الخلوات، وهزلت من شدة الجوع، فكانت الكلاب ساعتها أسمن مخلوق على وجه الأرض... لا زلت أذكر خطاب الملك الراحل الحسن الثاني حين دعا المواطنين إلى عدم ذبح الأضاحي، فاكتفى والدي بشراء ديك هندي، وكذلك فعل أغلب ناس القبيلة... اعتمد الأهالي في تلك السنوات العجاف على المخزون المتبقي من الحبوب، وتولى المخزن توزيع حبوب الشعير(رويزة) على المحتاجين. وكنا نعاني ساعتها من فقدان قوالب السكر في الأسواق والدكاكين بين الفينة والأخرى. ومع ذلك زوجني والدي... ورغم أن العرس كان بسيطا جدا، إلا أنه كان مناسبة جمعت الرجال في خيمة كبيرة، حيث تلا الفقهاء ما تيسر من آيات الذكر الحكيم، ورفعوا أكف الضراعة إلى العلي القدير بأن يرحم عباده بالغيث، ويرفع مقته وغضبه عنهم... أما النساء فكان العرس مناسبة للترويح عن أنفسهن من عناء طويل، رقصن وغنين فرحا بروائح الكسكس نكاية في الجفاف اللعين... وقد رزقني الله

بولدي البكر في عامي الثاني رغم استمرار الجفاف، ثم جاء الفرج بعد ذلك، فعاد الغيث مدرارا، وارتوت الأرض واخضرت السهول والهضاب، واستبشر الناس خيرا بعودة الحياة إلى الأسواق من جديد... لم ينس الناس ذلك العرس قط، فقد كانت النساء تثنين عليه قائلات: لقد أفرحتنا في زمن الضيق أيها الرداد. بارك الله في ذريتك إلى يوم الدين. ألا ترى يا عباس أن الله قد بارك في ابني الذي أصبح الآن موظفا حكوميا ؟ دع ابنك يفرح بزواجه، فإنك لا تعلم ما أخفي له من قرة عين...

كان عباس يتابع شريط ذكريات الرداد في صمت وانتباه، ثم أردف قائلا: نعم نعم أيها الرداد. وكأن ذلك وقع البارحة ... هذا الوقت يجري أسرع من " الكروج " حين حصد ميداليتين أولمبيتين دفعة واحدة... سأزوج ابني هذا العام، والله المستعان...تهلل وجه الرداد، واستل من جيبه "السبسي"، ملأه ثم أشعله، وتابع دخانه الذي رسم في سماء الخيمة قلبا أزرق، فقال لعباس:

-شوف الفال آش قال...

رفع عباس رأسه، كانت الريح قد بدلت خطوط الدخان، فلم ير شيئا...تجاهل الأمر، وأكمل جمع السلع الخاصة بزبون... رد السلام على قادم على الخيمة دون أن يكلف نفسه عناء الالتفات إليه. نبهه الرداد إلى الوافد الغريب الذي بدا بلباسه العصري مختلفا عن" السّوّاقة"، مبتسما وهو يتابع حركات عباس وسكناته. رفع عباس عينيه باتجاه الشاب، فصاح: أهلاااااا وسهلا ، أيها

الشاب المثقف، تصافحا بحرارة، فقدمه عباس للرداد: هذا الشاب يدرس في الكلية، وقد طلب مني وزوجتي أن نوصله من سوق الأربعاء إلى قريته. وقد كانت رحلة معتبرة. أعجبني أنه كان يتحدث عن التحولات التي طرأت على العمران، وعن الهجرة المعكوسة لأصحاب الحضر نحو البوادي... تدخل الشاب الباحث فقال: أجل لقد كانت الرحلة معكما مفيدة للغاية. وها أنا اليوم أزور سوق السبت في محاولة لملاقاة بعض التجار والحرفيين للاستزادة من الوقائع والأحكام.

قال الرداد: الله يعاونك آوليدي...

أضاف الشاب: لقد قضيت أكثر من ساعة رفقة أولئك الأفارقة الذين اتخذوا مكانا خاصا في السوق، يتاجرون عبر طاولاتهم في الحلي والساعات وبعض الدهون الجلدية وغيرها، يتحدثون خيرا عن المعاملة الطيبة التي يجدونها في الأسواق بينما يتبرم بعضهم من الصراعات القائمة في بعض المدن، ويفضلون عليها أسواق البوادي... لكنني بالمقابل لاحظت العدد المتزايد من الباعة المتجولين من الشباب والأطفال من القرى المجاورة، يبيعون سلعا رخيصة، بعضهم يبيع الأكياس البلاستيكية خفيةً، وبعضهم يبيع الجوارب والأحزمة وغير ذلك من السلع ذات الربح الزهيد... يتشاجرون فيما بينهم أكثر مما يشتغلون...ورأيت أحدهم يرمي بسلعته غاضبا في وجه أفواج الجائلين من الباعة قائلا:

-"لي فطماتو مّو تصيفطو للسوق، بهدلتوا البيع والشرا..."

ضحك عباس مما سمع، وضحك الرداد من ضحكة عباس التي تشبه صوت

سيارة الإسعاف، بينما واصل الطالب كلامه:
الحرفة يا عمي، إذا دخلها من هب ودب تفقد وهجها ، ينطبق هذا الأمر على كثير من الأمور في المدينة: لا يقتصر الأمر على البيع والشراء، لقد تم تمييع العمل الحزبي باسم السياسة، وتمييع العمل النقابي باسم السياسة، وتمييع الصحافة باسم الحقوق، وتمييع الكتاب باسم الحقوق، وتمييع القنوات باسم الحقوق...فتهافت على السياسة ذوو الحقائب بلا شهادات، وعلى الصحافة ذوو الهواتف النقالة والميكروفونات، وعلى الكتاب ذوو الميل إلى الظهور بلا ظهور، وعلى القنوات أصحاب التفاهة وذوات الأرداف والسفور...
نهض الرداد من مكانه، نفض الغبار عن مؤخرته، ثم غادر الخيمة وهو يقول: "أودي هنينا خلينا ناكلو خبيز بارد"، ثم انصرف
أما عباس فبادر الشابَّ بسؤال: واش هادشي كيقرّيوه ليكم؟
ابتسم الشاب وقال: ألا تشاهدون التلفاز؟ هذا الكلام ينشر كل يوم على صفحات الجرائد، ويتنابز به أهل الأحزاب المتناحرة، ويعيده الخاصة قبل العامة، حتى تم تمييعه بالتكرار والاجترار... فبات واقعا مرّا مُستمرَءاً...
يتعايش معه الناس بين مدافع موافق أو معارض منافق...
كان الشاب المثقف يهم بالمغادرة حين سلم على الجميع رجل جمع بين سمات البدو و طباع الحضر، أجلسه عباس إلى جواره، وكان يناديه بالفقيه. نظر إلى الزبون الجالس وسط الخيمة فقال: ألا تعرف الفقيه؟ إنه المعلم الذي بعثه إلينا المدير منذ عامين.
قال الزبون: "مرحبا بالسي الفقيه، حنا عندنا مدة هاذي ما قراوا الدراري "

أومأ المعلم برأسه، ثم قال: " فين مامشيتي كاين المشاكل، حتى أنا راه المدير اعطاني نشد الأقسام كلها (سمطة)"

الزبون: كيفاش ؟

المعلم: يعني كنقري الاول والثاني والثالث والرابع ... ويلا ما جاش الأستاذ الاخر كنشد حتى الخامس والسادس.

الزبون: ياك غا قراية قراية

المعلم: نوض تسوّق على اولادك قبل ما يتفرتك السوق

يضحك الجميع، بينما يخوض المعلم وعباس في حديث ثنائي مليء بالقفشات والمشاهد المضحكة... فيستعرض المعلم ما تذكر من قفشات محيطه وتلامذته ومستملحات زملائه:

أتذكر يا عباس؟ لقد كنت غير مرحب بي تماما بهذه البلدة الكريم أهلها... لقد كانت ليلتي الأولى مرعبة. لسعتني عقرب سوداء، عدّ صاحبي على ظهرها سبع عقد سامة. نقلت ليلتها إلى المستوصف البعيد حيث تلقيت حقنة مضادة للسم، وعدت واجما خائفا أترقب لحظة الوفاة بين حين وآخر. مرت الأزمة بسلام، غير أني بت أخشى العقارب، أنفض فراشي وأغطيتي عدة مرات، أقرأ كل ليلة :"فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم" ، وأغلق ثقوب الباب والنوافذ قبل أن أصارع النوم على مضض...

ضحك عباس باستخفاف ثم قال: لقد كانت مجرد قُبلة للترحيب بك من قبل زعيم الحشرات يا رجل، إنه لا يخيفني مطلقا، فكثيرا ما حاول لسع قدمي لكنني كنت أكسر شوكته بفعل صلابة وخشونة جلدي المشقق مثل بور

جافة... امتزجت الضحكات بغرغرة الشاي من فم البراد، وزع عباس الكؤوس على الحاضرين، ثم أكمل المعلم قفشاته قائلا:
بالله عليك يا عباس، هل أنا موظف تابع للدولة؟ كيف أكون كذلك وقد قدِمت عليكم غريبا أعزل، أبحث عن سكن وسط الدوار، فلا أجد سوى خيمة مهجورة، اضطررت وصديقي المعلم "اسماعيل" إلى كنسها وتنظيفها، فأصبحنا نعيش بداخلها كالأيتام، ولولا كرم أهل القبيلة الذين كانوا يأتوننا بالخبز والماء، ويحملوننا على متن عرباتهم إلى السوق لنشتري بعض اللوازم، لمتنا جوعا وكمدا... كنا قديما نجيب معلمينا حين يسألوننا في بداية العام عن مهنتنا المفضلة في المستقبل، بأننا نفضل أن نصبح معلمين. البارحة يا عباس أجابني أحد تلامذتي قائلا: إن كان كل المعلمين يسكنون منزلا مهجورا مثل منزل "بن جدية"، فأنا لا أرغب بتاتا أن أصبح معلما... قلت له: لك ما تريد يا بني... أنت لا تحب وضعي، وربما لا تحبني أيضا... قال: لا يا أستاذ، أنا أحبك، لكنني كنت أظن أن الأستاذ يعيش في ظروف أفضل من هذه... قلت: لا عليك سوف تتحسن الأمور يوما... حاولت خلال الفترة التي قضيتها هنا أن أنسجم مع تلامذتي، كنت إلى جانب الدروس، أشرف على إجراء مسابقات ومباريات في كرة القدم، أشاركهم اللعب والفرحة، أرافقهم في خرجات مشيا على الأقدام، نصعد قمم الهضاب العالية، نبحث عن أعشاب نافعة كالصعتر والمخينزة وغيرها... ثم أتابع ألعابهم وسط غابة ظليلة، فيعودون فرحين مبتهجين. كنت أحاول أن أسعدهم، أن أغير نظرتهم للمعلم الساكن بمنزل

"بن جدية"، أن أجعلهم يحبونني كي يأخذوا عني... وأظن أنني جعلتهم يحبون الوزرة البيضاء التي كنت حريصا على ارتدائها كل يوم. تعلقوا بي بصورة غير عادية، فأذرفوا الدموع عند سماع خبر انتقالي...

سأفتقدهم يا عباس، سأفتقدهم...

عباس: صحيح كل التلاميذ متعلقون بك...ما لا تعرفه يا أستاذ، أن الجميع يذكرك بخير، التلاميذ ينقلون إلى آبائهم كل صغيرة وكبيرة، لقد غيرت نظرة الأهالي إلى المعلم...

نهض الزبون من مكانه، اشتكى لعباس نقصان جودة الشاي الذي اشتراه منه الأسبوع الفارط، ثم طلب من عباس أن يجمع حساب السلع التي اقتنى، أدى الواجب وانصرف. نظر إليه عباس وقال: السلعة تأتي إلينا معلبة غامضة مثل الرمانة، فكيف لنا أن نعرف جودتها، كل ما نعرفه هو اسم العلامة التجارية يا صاحبي... قال الزبون: لقد بلغ إلى علمي أنهم يخلطون شعيرات الشاي الجيد بشعيرات شاي رديء بخس الثمن... قال عباس: " من غشنا فليس منا"، قالها وعيناه تدوران في رأسه كأنما يلعن شيطانه السابح في دمه المخلوط...

كان المعلم يتابع حوار الشاي المخلوط أو (المصبوغ)، يراقب انصراف الزبون قبل أن ينفجر ضاحكا، استغرب عباس ضحكة المعلم، ودون أن يسأله، أخذ هذا الأخير يقص حكاية زميله إسماعيل مع التاجر البقال في سوق الجمعة:

"غادرنا المدرسة صباح يوم الجمعة، كنا متجهين أنا وإسماعيل صوب الفيلاج لحضور اجتماع مع المفتش، لبسنا لباسا يليق بالمناسبة، ناقشنا

الصعوبات كالعادة، ودوّنا نفس الحلول والاقتراحات التي كنا نعلم مسبقا عدم أخذ المسؤولين بها، وقعنا أسفل التقرير، ثم غادرنا ونحن نردد: ما أثقل هذه الاجتماعات، ولولا أنها مناسبة لصلة الرحم بالزملاء من باقي الفرعيات لما كان لها طعم يُشتهى... عدنا مسرعين إلى السوق، اتجهنا رأسا لقضاء أغراضنا، وقفنا أمام خيمة تاجر بقال، أخذ ينظر إلينا نظرة شك وريبة، فقد سأله إسماعيل عن ثمن الزيت بلهجة صارمة، كان أخوه يصفف السلع في الجانب الآخر. طلب منه إسماعيل أن يناولنا لتر زيت وبعض التوابل، لكن التاجر نادى على أخيه، كلمه في أذنه، فاستدار الأخ نحو إسماعيل، ودس في كفه ورقة نقدية من فئة عشرين درهما، ظنا منه أننا من لجان مراقبة الأسعار. لم أنتبه إلى الأمر، لكن اسماعيل انفجر ضاحكا وهو يبسط أمامي الورقة النقدية المدسوسة. احمرّ وجه التاجر، وشعر أخوه بالفزع، فقد اعتقدا أن اللجنة المزعومة لم ترض بالمبلغ، نهض التاجر يهرول، وأخذ يستعطف إسماعيل بشكل غريب. فهمت ما جرى بعد حين، حاولت أن أطمئن التاجر دون جدوى، فقد كان على درجة من السذاجة والبراءة...

قال عباس : كنتوا تاخذوها وتزيدوا في حالكم ...

المعلم: أودي راهم غا سمية تجار، القضية عندهم عيانة، عيب نديروها ، واش نسيتي راحنا معلمين؟

قالها المعلم ثم جلس يحدث نفسه في صمت، كلامي تغطية على خطايا بعض المعلمين ، كلامي صباغة طليت بها وجه عباس فسكت، والحقيقة أن ثمة معلمون يفعلون أكثر من ذلك. ولكي أكفر عما فعلت، قررت أن أحكي لعباس

حكاية معلم آخر مع كلب:

"عاد معلم بإحدى القرى النائية من السوق، وضع قفة الخضر واللحم في الحجرة، ومضى يسوّي صفوف التلاميذ قبل أن يعود لتسوية المشتريات في أماكن آمنة. وحين عاد شاهد الكلب يخطف اللحم ويفر هاربا، تبعه يجري دون أن يتمكن منه، لقد حرمه الكلب وزميله من تناول وجبة عشاء دسمة. اغتاظ المعلم، وبات يتحين فرصة القبض على الكلب. نصب له كمينا، فصاده بواسطة شبكة صيد، أغلق فمه بلصاق بلاستيكي، ثم جلس يفكر في طريقة ينتقم بها منه. ساقه جنونه إلى الحكم على الكلب بالإعدام شنقا. ربط حبلا في أعلى شجرة ثم علق فيه الكلب من رقبته وقال وهو يتابع المشهد: الآن مُتْ أيها السارق الشرير..."

قال عباس: يا له من مشهد قاسٍ... ولعل قساوة الظروف التي كان يعيشها ذلك المعلم هي ما دفعته إلى اقتراف هذا الجرم في حق حيوان أليف ضعيف.

أجاب المعلم: أضف إليها كثرة تعاطيه للمخدرات، فقد علمت فيما بعد أنه مات منتحرا في ساحة المدرسة... ماذا أحكي لك يا عباس؟ قصص المعلمين وحكاياتهم لا حصر لها، فهي بحجم الصعوبات والإكراهات والمآسي التي تعيشها مدارسنا...وبذلك تناسلت الحكايات والطرائف الملتصقة بالمعلمين منذ زمن... قالها ثم همّ بالانصراف، لكن عباس استمهله قليلا، وطفق يعيد حكاية المعلم مع لحم السوق... ضحك المعلم ثم أكمل: تلك يا عباس حكاية أخرى، لقد كنا نشتري قسطا من اللحم من السوق، لم تكن لدينا ثلاجة لحفظه، فكنا نضطر لرشه بالملح وتقطيعه على شكل قدّيد، ثم نعلقه في جدار

البيت كي لا تطاله الهوام... وكل يوم نقصّ منه قطعة كي نطبخها. وكم كانت أكلات اللحم المرشوش بالملح لذيذة في ذلك الوقت، كنت حاذقا في طبخه، بالغ الحركة والنشاط، وكان زميلي إسماعيل بالغ السخرية والمرح، فكان يلقبني بالنملة وألقبه بالصرار... المثير في تلك الطريقة المبتكرة لتخزين اللحم، هو الطريق الثنائية التي كانت ترسمها أسراب النمل ذهابا وجيئة من الغار إلى اللحم. تجذبها رائحة اللحم، وتمنعها عن الأكل منه تلك الملوحة الزائدة، غير أنها لا تجد بدا من الصعود والهبوط كل يوم... كنت أستلقي في فراشي، أتابع أسراب النمل التي لا تكل ولا تمل، أتساءل كيف لا تخبر بعضها عن الملوحة الزائدة، وكيف تصر على الهبوط والصعود دون جدوى... تتصادم بالرؤوس، تزيغ عن الطريق فتعود فورا، تسرع كلما أحست بالخطر، وتختفي على حين غفوة نعاس تأخذني إلى حيث أنسى كل شيء... كانت ظروفا صعبة، لكننا عشناها على أمل تجاوزها بأقل الخسائر... كانت أياما عسيرة على الهضم، جعلتنا كمن نكص على عقبيه ، كمن عاد إلى الوراء سنينا... درسنا في المدينة، وتلقينا التكوين في مركز فخم البناية، ورمت بنا التعيينات رمي المقلاع للحجارة... كانت أياما ذات لون خاص وطعم خاص ، صبغت ذاكرتنا وقلوبنا بصباغة لا تزول كالوشم على وجه العجائز... الصباغة يا صاحبي أشكال وألوان، يتفنن الصابغون في ابتكار الأشكال، ويبدعون في خلطات الألوان، ويفعلون في الناس الأفاعيل من حيث يدرون أو لا يدرون، وأهون الصباغات صباغة الحمير... هي في النهاية تغيير لوجه الأشياء سلبا أو إيجابا، هي اختصار للأهواء والأنواء واستدعاء للأضواء ... هي يا صاحبي، لا تقتصر

على الأجسام المحسوسة كالحيطان والملابس والأجساد والطرقات والحدائق والحقول والغابات... بل تتعداها لتشمل صباغة الأفكار والمشاعر والمعتقدات ... وتلك لعمري أخطر أنواع الصباغات...

فشتان بين أسواقنا المرشوشة سابقا بدهان الحماية و الاستعمار، حيث تصبغ ظهور الممتنعين عن أداء "ضريبة الأذن" بدماء السياط، وبين أسواقنا المطلية بدهان الحرية والاستقلال، حيث تصبغ ظهور الحمير عند الأداء بمداد بنفسجي داكن... السوق يا صاحبي مدعاة للخوف حين تدلف إليه من بابه الكبير، ومدعاة للهلع حين تقفز إليه من فوق السور المثقوب، كما يفعل اللصوص والنشالون والمتهورون والجانحون والرافضون لمنطق التسييج، وحين تتفل في حنقٍ حسرةً وندما على نقود ضيعتها هدراً في جلسة خمر عابرة... تغوص قدماك في وحل السوق فتقول لصاحبك: " ليتني احتفظت بها كي أشتري حذاء مطاطيا..."(تفو....كون شريتها عا بوط)

يضطر كثير من الباعة وأصحاب عربات النقل المدفوعة وغيرهم إلى المبيت في فضاء السوق، وتتحول خيام المقاهي إلى فنادق مفتوحة، بلا حجرات ولا أسرّة ولا وسائد ... يكتري كل فرد مكان تمدده، فراشُه وغطاؤه جلبابه الخشن، ووسادتُه كيس مملوء ببضاعة أو قفة فارغة مثنية أو صخرة عليها ثوب ترهّل... إذا طاف بها الرداد، حكى للجماعة عن مقبرة للأحياء، قبورها غير مصفوفة، وموتاها ينتظرون قيام ساعة الفجر، وانبلاج صباح السوق. ويحلو له أن يصفها بالفنادق الفاخرة ذات نجوم السماء بأكملها، فهي ذات فتحات تطل على النجوم، وتجعل أنس القمر درءاً للهموم... لا يستطيع

الرداد أن يصدق ما يحكي الآخرون عن فنادق سياحية تكلف الليلة الواحدة بها ثمن عجل سمين أو بقرة حلوب... يتساءل ساخرا أمام الجماعة: من أين لهؤلاء بذلك القطيع حتى يعطوا لأصحاب الفنادق كل يوم بقرة...؟ صعب على الرداد وأمثاله أن يتخيلوا ذلك، فالبون شاسع و"السوق قائمة والثمن موجود" لا تدع خيالك يتسع على السوق أيها الرداد المسكين، فيمسّك من شياطين الأسواق مس لعين... ونم قرير العين بفنادق الأسواق، واحذر لعنة الأبواق، ولا تنس أن توقظ عباس من قيلولته...

عاد الرداد إلى خيمة عباس، وجده في حديث مع فقيه المسجد بالفيلاج. كان هذا الأخير يحكي لعباس قصة "الكاوري" الذي أعلن إسلامه بعد صلاة الجمعة الفارطة، وفضل أن يلازم الفقيه فيصحبه إلى السوق. كان شارل (الكاوري) جالسا في تؤدة، يحول نظره بين الحاضرين، فلعله لا يفهم ما يدور من حديث. وحين أشار إليه الفقيه بعينيه أدرك أنه يحدثنا عن قصته. فبدا متحمسا لقراءة ردّات أفعالنا على وجوهنا... قال الفقيه: "أخوكم في الله قد أسلم منذ مدة يسيرة، فهو حديث عهد بالإسلام، وله رغبة في أن يتعلم لغة القرآن ويعيش بين ظهرانينا ويعيش حياتنا في البيوت والأسواق، في السفر والحضر..." بدت على الوجوه علامات الرضا، وختم الفقيه بدعاء ثم انصرف صحبة عبد الرحمان، وهو الاسم الجديد لشارل (الكاوري)... بعد اختفاء أثرهما، رنا عباس في وجه الرداد يستثير تعليقاته الغريبة، انفجر الرداد ضاحكا وقال: " خير لهذا (الكاوري) ألا يتعلم لغتنا، وألا يتعرف علينا لا في

البيوت ولا في الأسواق، لا في السفر ولا في الحضر، إن هو أراد أن يثبت على ديننا الحنيف... رد عباس: أنت لا تفقه ما تقول أيها العربيد، خير لك أن تلزم الصمت ...

سرح ذهن عباس وهو يرى ذلك النموذج الفريد الذي لم يتغير منذ أن عُرفت الأسواق: رجلا يسرج حماره أو حمارته ببردعة سميكة مملوءة بالتبن أو الحلفاء، وقفتان عن يمين وشمال، مربوطتان إلى بعضهما، موضوعتان فوق سطح البردعة، مشدودتان بحبل يجمع أذنيهما، يركب الرجل الدابة ورجلاه متدليتان في اتجاه اليسار، تتحركان باستمرار كي تستمر الدابة في سيرها... منظر قديم قدم الأسواق، لم يتغير رغم التطور الحاصل. ولعلها الوسيلة الأرخص للتنقل الفردي أو الثنائي... كان عباس يتابع من هذا المشهد العشرات، رجالا ونساء، يربطون الحمير في جنبات الأسواق، ويدخلون إلى الساحات محملين ببيض أو طيور أو زبدة أو نحوها...تأبى هذه الوسيلة أن تختفي، وتأبى إلا أن تؤثث الأجواء في مبارزة صارخة للطائرة والقطار والتيجيفي والترامواي وغيرها... كانت المسألة شبه عادية حين كان عباس يكتفي بالمقارنة بين راكبي الحمير وبين سيارة الخطاف العربي أو حافلة "النقل إلى جميع النواحي"، أو شاحنة نقل الرمال "البيرلي"... اتسعت بذلك هوة المقارنة... فصار الرداد يعلق قائلا: "الحاجة لي ما تشبه مواليها حرام... اسواقهم كيف مركوبهم واسواقنا كيف حميرنا" يضحك الحاضرون إلا عباس الذي انشغل في جبر كسر وافد جديد...أمر الرداد بالانصراف قبل أن يشرع في خلط مادة الجبص... غادر الرداد وفمه يقطر تهكما على خلطة عباس، إذ

يشبّه جبصه بإسفلت الطريق المعبدة التي ادعى رئيس الجماعة الإشراف على إنجازها قبيل الانتخابات، فما لبثت أن تآكلت جوانبها، وامتلأت حفرا بلا عدد... يتهكم الرداد بعبارته المعهودة: "الحاجة لي ما تشبه مواليها حرام"، ثم يضيف: لا فرق بين صباغتك يا عباس وبين صباغة الطريق المعبدة... يصهل عباس في وجهه، فيفر الرداد هاربا، وقد أدرك بعد فوات الأوان أنه أصاب صديقه في مقتل... أليست سمعته هي رأسماله؟ يحدث زواره دوما عن كونه اكتسب صنعة جبر الكسور من والده رحمه الله، ونال منه البركة والتيسير... فكيف يجرؤ الرداد على التقليل من قيمة الجبص أو من قيمة وقداسة العشرات من المواد المستعملة في علاج عدد من الأمراض، في عشرات الخيام المصفوفة في الأسواق. لقد دأب الناس منذ القديم على اللجوء إليها للتداوي وطلب العلاج في غياب قدرتهم على ولوج المستشفيات لسبب من الأسباب. خمسة أطباء فقط، كانت هي حصيلة ما تخرج على يد الفرنسيين طيلة خمسة وأربعين عاما، غادر المعمرون البلاد وعدد سكانها يفوق تسعة ملايين نسمة، غادروها وما تعلم منهم إلا قلة قليلة، فلجأ الناس إلى الأسواق يطلبون الدواء من كل داء...ولجأت النساء إلى الأضرحة يستجدين علاجا ...وزُجَّ بالمجانين إلى وقت قريب في دهاليز الأولياء وسلاسل أدران لم ينفع في إزالتها حتى "صابون تازة"...

كان جدي يغتاظ كلما سمع أحدهم يثني على " الفرانسيس" لم يكن منبهرا بالزفت ولا بالمعادن والأخشاب التي مهدت لهم سبل نقل خيرات البلاد برا وبحرا وجوا ... كان يردد دوما: ما أتفه هذا العالم المصبوغ...

حدثني راوي الرواة المخضرم بما قرأه فقال:
(-" الصباغة يا صاحبي لا تقتصر على أسواقنا ، لا تصدق كل ما يقال، فقد هاجمت أحلام مستغانمي في كتاباتها الرجل بعنف، لكنها تزوجت أربع مرات... وهاجم درويش إسرائيل في شعره ، لكن حبيبته كانت إسرائيلية... وأنشد المتنبي قائلا:
الخيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم
لكنه كان أجبن من أن يرفع السيف في وجه قاتله...وديل كارنيغي الذي ألف كتابه الشهير : دع القلق وابدأ حياتك، مات منتحرا... وجان جاك روسو ألف العديد من الكتب في التربية وأودع أبناءه في ميتم...و مارادونا الذي لعب بقميص يحمل عبارة "لا للمخدرات" أصبح مدمن مخدرات... وبلاتيني الذي لعب بقميص يحمل عبارة "لا للفساد" أصبح فاسدا...")
عذرا أيها القراء الأعزاء، فقد زاغ قطار الحكي عن السكة، في محاولة مني لصباغة راوي الرواة، عفوا لترضية راوي الرواة، أعترف لكم... أعلم أن عباس و جماعته لن يستظرفوا هذا الكلام، فقد اكتووا بوعود المرشحين في الحملات الانتخابية غير ما مرة.... يلبسون طرابيش و"جيليات" مصبوغة بلون الحزب، يتلفظون بشعارات مبهمة، يقدمون الوعود تلو الأخرى، يكذبون ويكذبون ويكذبون، فتكرار الكذب يؤدي بصاحبه إلى تصديق ما يدعي، كما يقول علماء النفس... فأصبحت الانتخابات بذلك كذبة متفقا عليها بين الناخب والمنتخب، وهي كذبة تحمل الكثير من النفاق والمداهنة والخداع، والكثير من

ألوان الصباغة...

حين زار عباس مدنا كبرى، لاحظ الفرق الكبير بينها وبين مدينته الصغيرة التي تسير سير سلحفاة مريضة. مدن ساحلية تستقطب الوافدين من كل النواحي، وتحتضن أعدادا وعادات وتقاليد وحركية زائدة... ومدنا تقطعها أودية رقراقة، وأخرى تجمعها الواحات والسواقي الطبيعية، تتألق بالحدائق والمنتزهات وغيرها، ومدنا تشكل جامعاتها ومعاهدها مصادر جذب واستقطاب... وحين كان يستلقي قرب كومة التبن في باديته المطلة على مدينته الصغيرة، يوزع نظراته بين حركة النجوم في السماء وتراقص الأضواء الكهربائية في الأفق، كان يتساءل مع نفسه:

إن كانت المدن تنشأ حول مجاري الأنهار، وعلى شواطئ البحار، وقرب الواحات والسواقي وغيرها من عوامل الجذب كالمعاهد والجامعات والنوادي الرياضية... فكيف بمدينته التي نبتت كالطحالب في بركة آسنة؟ أي شيء جذب هؤلاء القاطنين والعابرين ؟ يذكر جده أن المنطقة استهوت المعمرين زمن الحماية لخصوبة أراضيها ووفرة المنتوجات الفلاحية من مزروعات ومغروسات ولحوم وألبان وغيرها، واستقرت بمركزها عائلات فرنسية وأخرى مغربية معدودة على رؤوس الأصابع، ونزح إليها كثير من العمال فيما بعد، فقد نشأت بضواحي المركز مصانع أربعة ذات طابع ومنتوج فلاحي، لم يتبق منها إلا معمل واحد...كان هذا الأمر يحز في نفس عباس، وهو يسجل ذلك التراجع الملحوظ دون أن يفهم الأسباب... مدن ترتقي عاما بعد عام، ومدن تتراجع القهقرى أو تراوح مكانها وتجتر مرارة التسويف والركود... يبدي عباس

سخطه على زحف الإسمنت والزفت على الأراضي الفلاحية في المدينة وضواحيها، ويتساءل كيف سيعيش هؤلاء في غياب السوق. وحين يأخذه التفكير طويلا، يلعن شياطين المدن، ويقنع نفسه بكونه مخلوقا سوقيا، عليه أن يهتم بعربته وبغله وأهله، ويكمل رسالته التي نذر حياته من أجلها، ألا وهي الحفاظ على الخيمة المعلومة...لكنه حين يفكر في الأسواق، يزعم وهو يحكي لخلانه، أن هؤلاء "السّوّاقة" خصوصا منهم الذين يبيتون في ساحات الأسواق عشية يوم السوق، سوف يجلبون النحس لهذه التجمعات المبروكة، حيث تتوزع أرزاق العباد وتتباين، فقد رأى بأم عينيه حين بات ليلة هناك، كيف تحولت الخيام إلى أوكار للدعارة، ومراتع للخمر والمجون على نغمات شعبية ، وحلبات لعراك الصعاليك من اللصوص والجانحين: لم تعد أسواقَ الصالحين بالمرة...

عبد الرحمان الغويط، صديق عباس الوفي الذي كان يزوره كلما اشتاقت نفسه لرائحة الأسواق، يجالسه سويعات قبل أن يختلف إلى الحلقات والخيام والساحات، كان يشتغل أستاذا للتاريخ بإحدى الجامعات، حدثنا ذات سوق بخميس الزمامرة فقال:

"بنيت الأسواق بوصفها أماكن للتبادل التجاري منذ القديم على عنصر أساسي هو الأمن والاستقرار، فكثيرا ما كانت تغيب الأسواق كلما حدثت ثورة أو فتنة أو هجوم، فيضطر الناس إلى التقشف والاكتفاء بالمخزون... لقد أدرك الناس منذ القديم أنهم يكمّلون بعضهم البعض، إذ عُرفت كل قبيلة بمنتوجات معينة، فكانت القبائل تتبادل تلك البضائع بيعا وشراء... وهو ما كان يحمل

القبائل على التفكير في استتباب الأمن من أجل ضمان حاجيات كل قبيلة. وهكذا فكروا منذ ذلك الحين في طرق عديدة للحد من اللصوص وقطاع الطرق، ضمانا لوصول البضائع إلى وجهتها، ومن ذلك ما كان يعرف ب"الزّطّاط"..." الذي يصحب القوافل في الأماكن الوعرة، حيث يختبئ قطاع الطرق، مقابل أجر يناله...

قال الرداد: لقد كنت أسمع امبارك (الكورتي) في محطة الحافلات ينادي على الراغبين في السفر إلى مدينة سطات، وكان ينطقها "زطاط"، ربما تحول نطقها بين الزاي والسين وبين الطاء والتاء...

لم يول "الغويط" كبير اهتمام لما فاه به الرداد، لكنه استطرد قائلا:

أدركت سلطات الاحتلال أهمية الأسواق الأسبوعية على جميع الأصعدة، فأولت اهتماما بالغا بهذه الأسواق في محاولة لضبطها بشكل يخدم مصالحها، وقد قام المستوطنون بالاستيلاء على الأراضي بشتى الطرق المشروعة وغير المشروعة، ولعبوا دورا في تنظيم الأسواق بما يخدم مصالحهم التجارية والسياسية، بما في ذلك استقاء المعلومات الإحصائية ورصد الحركات والسكنات، فقد كان للأسواق دور كبير في التواصل بين المقاومين والفدائيين، علاوة على دورها في عرض المنتوجات والخدمات، مثل إصلاح الأدوات الفلاحية الخشبية والمعدنية، وإصلاح الأحذية، والحلاقة والحجامة، ووضع الصفائح للخيل والبهائم، وأعمال البيطرة والتطبيب وكتابة العقود والرسائل وغيرها من الخدمات، كما كان يتم فيها الإعلان عن أداء مناسك الحج والعمرة، وعن المشاريع الحربية وفترات الانتجاع وإبرام المعاهدات

ونقضها... وبين هذا وذاك تعقد جلسات الصلح بين الأشخاص فيما بينهم والقبائل فيما بينها... ورغم هذه الأدوار لم تسلم الأسواق من فترات تضييق الخناق على المتسوقين، والضغط عليهم من طرف قواد الاستعمار لتأدية الضرائب، ومحاولة ترهيبهم وزجر الانتفاضة والمقاومة بتكثيف الاعتقالات.
ولما تحولت الأسواق كمائن لإلقاء القبض على المشتبه فيهم، فرغت من مرتاديها، فعاشت لحظات عصيبة لم تنقشع غيومها إلا بخروج المعمرين...
فجأة ينطق عباس بعد وجوم:
أجل، أجل هذه الأمور عشناها على امتداد سنوات طوال، لكن سماعها منك أيها الأستاذ الجليل والمؤرخ النبيل، تجعلنا كمن يستفيق من حلم يقظته، ويلتفت إلى نفسه... أحس يا صديقي أن أسواقنا دم يجري في عروقنا منذ وعَينا...
قال أحد الحاضرين: نعم والله، إنها جزء من ذاكرتنا وفلذة من أكبادنا ونفخة في حواسنا... فإن مجرد تحويل سوق من مكانه الذي ألفناه، يفقده الكثير من جماليته ومكانته في نفوسنا، فيتغير مذاق الشاي و الإسفنج وتتبدل رائحة السمك المقلي، وتتغير نكهة الجلسات القديمة... إنها جزء من كياننا ...
عاد عباس من سوق الخميس، استقبلته زوجته كعادتها دوما، أحضرت الماء الدافئ، صبته في إناء صغير، قرّبت الإناء من عباس، ودون أن يطلب منها شيئا، أمسكت رجله اليمنى ووضعتها في الإناء، وطفقت تغسلها بلطف، ثم غطست رجله اليسرى بنفس الطريقة. أدرك عباس بخبرته أن وراء الأكمة ما وراءها، وأنها لاشك تتودد إليه، وأنها على وشك أن تطلب منه طلبا ما...

نظرت إليه مبتسمة وقالت:
إن أصهارنا ينوون إقامة العرس بعد العيد، علينا أن نجهز غرفة نبيل، ونستعد أيضا...
تنهد عباس وقال: بالله عليك وعليهم، هل هذا وقت أعراس؟
ردت الزوجة: "حاجة الله يقضيها الله"، سأرافقك إلى الأسواق مرة بعد أخرى، وأقتني ما يلزم من أثاث ولوازم، تماما كما يفعل الأهالي في بلدتنا...
قال عباس: سنرى كيف يبدأ زواج الجفاف هذا...
جففت رجليه بخرقة بالية، طوّحت بها في ركن الغرفة، ثم قامت مسرعة إلى المطبخ، فقد وصلتها رائحة لحم يحترق... تداركت الأمر قبل فوات الأوان وهي تدندن مبتهجة بموافقة عباس على موعد العرس. عاد نبيل من الحقل، حيث كان يحصد سنابل الشعير القصيرة سيقانها والشوامخ رؤوسها من فرط الفراغ. جلس إلى جوار والده، وبدأ يحكي له قصة بقرة جارهم مسعود التي دفنت في حفرة وأخرجها الكلاب، وقصة الحمار الذي قدم إلى البيدر هزيلا يكاد يسقط وهو يمشي... قاطعه والده:
دعك من الحيوانات والقصص، هل أنت مستعد للزواج في الشهر القادم؟
-نعم يا أبي، لم هذا السؤال؟
-ماذا أعددت للزواج؟
-أنا لا أملك شيئا، "انت مول الشكارة"
-وماذا تعرف عن الزواج؟
-لا عليك يا والدي، سأسأل السابقين من أبناء الدوار عن كل شيء، كن مطمئنا...

-(يضحك عباس) الزواج يا ولدي عقد رباني ومسؤولية كبرى، كل عروس يا ولدي تأتي إلى بيت عريسها مثلما جاءتني أمك "رمانة مغمضة" ، فمن الرمان ما هو حلو ومنه ما هو مر... أرجو أن تنعم برمانة حلوة المظهر والمذاق، واعلم أن الرمانة مهما حلت، تحتفظ بالمرورة في قشرتها. فاصبر حين يختلط فتات القشرة بالحبيبات...

كانت والدة نبيل تتابع حديثهما دون أن تبدي رأيها... واكتفت بالقول:

إذا أحياني الله، سأجعل من رمانة ابني فاكهة لكل الفصول... يومها كانت العرائس تعتبرن أمهات أزواجهن أمّا ثانية، تتابعن خطواتها، وتنصتن إليها، فتتعلمن أصول المعاملة والطبخ والتنظيف وتنقية الحبوب من الشوائب وغيرها من أعمال البيوت... أما اليوم فأصبح من شروط الزواج البعد عن الأهل والأقارب... عند أول خصومة، تطالب الزوجة بمسكن خاص، فكثيرا ما أُغلقت أبواب حجرات وفُتحت أخرى في الخلف، وأحيط بها حوش من القش أو الحجارة المصففة، قبل أن تتحول فيما بعد إلى منزل تتسع أركانه وتتعدد حجراته حسب ما تسمح به المساحات ، فتتعدد أفران الطبخ و دهاليز الاستحمام وزرائب الغنم وما سواها...

انتشر خبر تحديد موعد العرس في القبيلة انتشار النار في الهشيم، فأصبح حلم النساء قبل الرجال، ونقطة الضوء الوحيدة في غمرة القحط اللعين... لَأنْ تشعل شمعة واحدة خير من أن تلعن الظلام أعواما كما يقال... أبدى الجميع استعدادهم لتقديم المساعدة، إذ كان أهل العرس يستلفون من الجيران والأهل والأحباب لوازم الفراش من أغطية وحصائر ووسائد وغيرها، ولوازم

الطبخ من قدور وصواني وموائد ...، ويتطوعون لجلب الماء والحطب وتهييء الأفران... أما الخيمة الكبيرة فكانت رهن إشارة الجميع ... لقد باتت الأعراس على قلتها متنفسا للأهالي، يساعدهم على استهلاك أوقات صيف حار طويل، وينقلهم صوب خريف متقلب، يعطي الأمل بالتفاف المزن حول بعضها، وتوقها لصلة الأرحام مع التربة الظمأى... أصبح سكان القبيلة يتشابهون في الأشكال والألوان، وجوه كالحة تميل إلى سمرة داكنة، يعصرها الحر بعد انكماش جراء قر الشتاء، وتبدو منها الوجنات والصدغ مثل نتوءات صخرية أصابها الانجراف. أياديهم خشنة ذات عروق خضراء بارزة، وجباههم مقبوضة بتجاعيد الانكماش والتصدي لغبار أو شعاع... القحط يا صاحبي عقاب أليم يورّث قسوة القلب وسواد الرؤية وبوار الأمل...

وعكس ما رامت نفوس الأهالي، ورغم ما بذلوا من جهود لإخراج العرس في أبهى حلة، كان العرس كارثة إنسانية هزت كل المشاعر، وكذبت كل البشائر، وأنزلت على الجناة أفدح الخسائر... فبينما كان الجميع مبتهجين داخل الخيمة الكبرى على نغمات "الموتشو" وأصوات "الشيخات" ، سمع الجميع صراخا يتعالى في جنبات الإسطبل، تفرق الناس مسرعين لمعرفة ما يجري، فتبين أن شخصا فاجأ زوجته مع رجل غريب خلف الإسطبل، فانقض عليها بمعية أهله، وأشبعوها ضربا ورفسا، تدخل الجميع وسط تلك الفذلكة المهينة، كثر الهرج واللغط، أغمي على الزوجة المعنية، بينما فر صاحبها دون أن يتمكنوا منه. تحول العرس إلى جلبة وفوضى عارمة، نسيت الطباخة أفران الغاز مشتعلة، فما هي إلا أن سمع الجميع انفجارا قويا لقنينة غاز، فاضطرمت النار

في أكوام التبن، وتحول المكان إلى حريق مهول، أصيبت الطباخة ومساعدتها، كانتا تقفان قرب مكان الانفجار، فعاشت القبيلة بذلك أسوأ حادثين، أدى الأول إلى طلاق الزوجة الخائنة ذات الأولاد الأربعة، وأدى الثاني إلى نقل الضحيتين إلى غرفة الإنعاش بعد جهد جهيد...

تبدلت آمال عباس وزوجته إلى أحزان ومساءلات بمخافر الدرك، وعمل الأهالي على تثبيت العروسين، ومحاولة إخراجهما من دائرة الرعب والأوهام، فإن ما حدث لم يكن بسبب أحد من العائلة، بل إن ذلك كان من فعل الأغيار... والحمد لله أن إصابة الطباخة ومساعدتها لم تكن خطيرة... بكى العروسان وهما يندبان سوء حظهما، لكن فقيه الجامع كان يوصيهما بالصبر وعدم الاكتراث لما يقوله الجانحون من أهل القبيلة... لم يكتمل العرس كما أراده عباس وزوجته وبقية الأهالي الطيبين، لكن زواج العروسين اكتمل في جو بئيس رغم ذلك، حيث بقيا حبيسين في حجرتهما الصامتة شهرا كاملا... فكان الرداد يقول: اللهم استر... الجفاف غيّر كل شيء، حتى الأمثال المعروفة انقلبت رأسا على عقب، كنا نردد:

"هبيل تزوج هبيلة وتهنات القبيلة"

فصرنا نقول:

" نبيل تزوج نبيلة وتخاصمت القبيلة"...

لم أر زوجة عباس بتلك الحالة إلا لماما، فقد بكت بحرقة الأم الرؤوم، وناحت مرددة: لقد أفسدوا علي عرس ولدي ، وكلت أمري إلى الله كي يأخذ منهم حقي وحق ابني وزوجته... أفسدوا عليهما عسل البدايات،

واغتصبوا فرحتهما غصبا...

لم يكن نبيل يترك عروسه منفردة بعد الذي جرى، فإذا زاره قبيل الغروب صديقه المكي، استأذنها لحظات ثم عاد مسرعا إليها، فقد كانت المسكينة لا تفتأ تهذي بموال قديم: " هذا مابقاك كوبة بين العينين... تلواك تلواك آبنت بويا الحنين"، وكل حين تذكر زوجها بما عاشته قبلها من مات زوج عريسها ليلة عرسها. إذ كانت النسوة تغمزن من قناتها في كل مناسبة، وتسمنها بسوء الطالع والنحس... فقد تشاجرت يوما مع إحدى الغريبات فنعتتها الغريبة بكونها كانت السبب في موت شيخها، فردت على الفور قائلة: شيخي قتله أجله، أما أنا فلا يزال أمامي متسع لأقتلك وعشيرتك المنحوسة...

ويطيب نبيل خاطرها بأن ما حصل لم يكن سببا في موت أحد. وأن ما حصل كان بسبب الأغيار من الفجار...

كان عباس حزينا لما جرى، يصبّر زوجته المكلومة قائلا:

(هادشي لي اعطى الله والسوق)

فينهره أخوه الفقيه قائلا: العن الشيطان يا عباس، الذي يعطي هو الله، أما السوق فهو مجال للسعي نحو الأرزاق ليس إلا...

يتنهد عباس دون أن يرد، لكن شفتيه تنمان عن الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم...

كانت الريح شديدة على غير العادة في صيف القرية، تجرف الخشاش والفضلات، وتحرك رماد التبن المحروق باتجاه المنزل الكئيب. حوقل الفقيه وهو يقول: أعوذ بالله من غضب الله، عليكم أن تتوبوا إلى الله وتقلعوا عما

يشغلكم عن جادة الصواب. انظروا إلى هذا الغمام الأسود، فلعل الله يرسل بعض قطرات من مطر، تغسل هذه الأجواء العفنة...ثم قام مسرعا ينوي مغادرة منزل أخيه واللحاق ببيته قبل أن تنزل أولى القطرات. ما إن غادر حتى انهمرت الأمطار بغزارة، هدر رعد ولمع برق مخيف، وتساقط البَرَد في حجم حجارة صغيرة، أصابت رأس الفقيه الذي اختبأ تحت شجرة، سال الدم من رأسه، إذ أحدث البرَد جرحا كبيرا، اضطر معه للذهاب إلى المستوصف بعد انحباس المطر، فحلقوا جنبات الجرح وخاطوه سبع غرز بارزة ثم وضعوا عليه ضمادا ... لزم الناس بيوتهم بعد الذي جرى، فقد سرى في أوصالهم خوف مريب من تتابع المصائب والنكبات... كيف تحول العرس من مصدر للفرحة إلى مصدر للرعب، وتحولت القبيلة الهادئة إلى رقعة منكوبة؟ لا أحد يفهم ما جرى... كان الفقيه يتعوذ بالله من غضب الله وحده، تماما كما كان يؤذن وحده ، ويصلي وحده في مسجد القرية...ويفطر وحده، حتى إذا بقي شيء من الخبز والشاي وزعه علينا نحن التلامذة تباعا...

مجتمع البادية يا صاح مجتمع آخر... لا تستطيع أن تعزل نفسك فيه، لا تستطيع أن تعيش خارج دائرة المشترك اليومي، وسط أناس ألفوا في السابق اقتسام المتاح ، يستلفون من بعضهم البعض كل شيء، حتى شعلة نار في زمن عز فيه كل شيء... وهم الآن يقتسمون فيما بينهم عبارات التنمر التي لا تنتهي. يعمدون إلى تصغير الأسماء تقليلا من شأن المخاطب، واستصغار ما يأتي من أعمال وما يتفوه به من أقوال... وكأن فيما يفعل أو يقول حط من كرامتهم وإبراز لنقص في دواخلهم... تعرض "نويبيل"(هكذا كانوا ينادون نبيل)، لحملة تنمر

شعواء بعد الذي جرى، لم يعد قادرا على ارتياد مجالسهم، وتجرع مرارة سموم ألسنتهم... قرر نبيل بعد شهور من زواجه أن يسافر إلى المدينة بحثا عن عمل فرارا من جحيم التعاليق. ورغم رفض الوالدين والزوجة في البداية، إلا أنه استطاع إقناعهم برغبته في الخروج من دائرة الجفاف الذي ضرب البور والصدور، واعترى الحقول والعقول... استطاعت والدته بحنكة السيدات الحاذقات أن تقنع زوجته بضرورة الصبر من أجل غد أفضل وأجمل، فقد كان دأب العرائس أن يمكثن في بيوت الأهل في غياب الأزواج. ومن الأزواج من كان يغيب عن بيته شهورا عديدة...بل منهم من كان يعود ليجد ابنه قد تحول من جنين في البطن إلى طفل يحبو أو يمرح مع القطط... يقضي مع زوجته بضعة أسابيع قبل أن يقفل عائدا إلى ورشات البناء في المدن العملاقة، هناك حيث يعيش عيشة العزّاب مع العمال، يعملون بالنهار، يتناوبون على الطبخ، وعلى تسوية عشبة الكيف، يتسامرون ليلا قبل الركون إلى جحورهم المصفوفة بالآجر، كما كان يحلو لهم تسميتها...وكل سبت، يعاقرون الخمرة حتى وقت متأخر من الليل، فلا يستيقظون إلا ظهيرة يوم الأحد... ونادرا ما كانوا يعمدون إلى تغيير ملابس العمل والذهاب إلى شاطىء البحر والجلوس في مقهى، ومتابعة المارة بأعينهم البليدة كما يتابع المتفرجون كرات التنس وهي تتحول بين لاعب وآخر... وكثيرا ما كانوا يسجلون من الوقائع والحالات المتعددة ما يجعلون منها طرائف ومواضيع يستهلكونها في الحديث طيلة الأسبوع الموالي...ولما كانت أماكن سكناهم غير آمنة، فقد كانوا لا يتسلمون من أجورهم إلا ما يسدون به رمق الأكل والشرب والدخان، ويتركون الباقي لدى

صاحب الشركة حتى موعد السفر والعودة إلى الأهل...

قبل عباس هذا الوضع على مضض، فقد كان يمني النفس أن يخلفه ابنه نبيل في تجارة الأسواق، ويحتفظ بالخيمة قائمة الأركان ... ولم يجد بدا من مواصلة مشاوير العمل بالأسواق، فقد كانت زوجته تقنعه بضرورة عودة نبيل يوما ما إلى البادية، فإن العمل بالأوراش متعب للغاية. قد يجد فيه العامل لذة في البداية، لكنه سرعان ما يتذمر من حياة العزاب ويعود إلى حياة المتزوجين، تقول:

- سيتنبه يوما إلى أنه في أوراش البناء، لم يعد ينتمي لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء...لا إلى العزاب ولا إلى المتزوجين...

كلما عاد نبيل إلى أحضان والديه وزوجته، كان والده يلح عليه كي يبتعد عن حياة الأوراش، ويطلب منه البقاء إلى جواره، يشكو له عدم قدرته على ارتياد الأسواق كما كان في السابق، ويذكره بوصية جده المرحوم...يقول:

- أترضى يا ولدي أن أموت عاقا لجدك ؟

-أمهلني بعض الوقت يا أبي حتى أستطيع نسيان ما جرى، فإن ما جرى لم يكن سهلا على الإطلاق...

-وماذنب بنت الناس يا ولدي، حتى تتركها تقاسي مرارة ما جرى وحدها؟

-أعدك أن تكون هذه هي المرة الأخيرة، سأعود قبيل عيد الأضحى، ولن أعمل بعد ذلك إلا معك...

تهلل وجه نبيلة، دون أن تبدي ذلك للحاضرين، انصرفت في هدوء، وقصدت المطبخ لمعاينة طنجرة الطبخ المنصوبة على نار هادئة... أما زوجة

عباس، فظلت صامتة تراقب انفعالاتهما، محاولة ثني زوجها عن قول المزيد بواسطة إيماءات مفضوحة... وبدل أن ينهرها عباس، كان ينهر الكلب الواقف بباب الحجرة ينتظر كسرة خبز أو عظمة ملحوسة... كان الكلب يلهث وعيناه جاحظتان في وجه القطة التي تنعم بحظوة خاصة من قبل عباس، يجلسها بجانبه، يمدها بكسرات خبز مأدوم، ويربت على ظهرها بين الحين والحين... حين تغادر البيت، سيكون لها ولا شك حوار خاص مع الكلب الحاقد...قد يكون هذا التمييز العنصري بين حيوانين أليفين سرا من أسرار العداوة القديمة بين القطط والكلاب ...من حق الكلاب أن تحتج بشدة، فهي التي تحرس الأمكنة والأمتعة والممتلكات، وتصاحب كل الرماة والرعاة، ولاتخون الود أبدا... فكيف لهذه القطط الصغيرة أن تجد كل هذا الاهتمام من أصحاب البيت ودورها لا يتجاوز أكل الفئران إن وجدت... كان عباس يتبرم دوما من سماع نباح الكلاب ويتعوذ بالله من الشيطان الرجيم كلما سمع نهيق الحمير... أما القطط الوديعة والصغيرة الأحجام، فأصواتها لا تكاد تزعج أحدا... كما كان إذا قابل كلبا في الصباح تفل عن يساره وأبدى تشاؤمه من ذلك. وقد كان أخوه الفقيه يعاتبه باستمرار على ذلك، لكن عناده كان يأخذه صوب تكرار الأخطاء ذاتها... نفسه الشرهة الهلوعة، تجعله يتمسك بالأوهام من أجل الكسب. فقد قضى في الأسواق أعواما عديدة، لكن ثروته لا تكاد تظهر رغم حرصه الشديد. كان الرداد يعلم ذلك، فكان ينصحه دوما بالتوكل على الله وترك الأمور تجري لأعنتها، فإن الدنيا (يقصد المال) "ايلا بغاتك تجي بسبيبة ويلا ما بغاتك تقطّع السلاسل" ...لم يكن عباس يلقي بالاً لكلام الرداد

ولأمثال وحكم الأقدمين، بل كان يسوي كل ذلك بحديث الفقيه وموعظته.
وبسبب ذلك تبين لمرشد ديني يوما، أن عباس وأمثاله لم يتطهروا من جنابتهم أبدا... وأن لديهم طقوسا ومعتقدات غريبة في التعبد:
يسكتون عن تأنيب شارب الخمر عشرة أشهر، ويلومونه عند دخول شعبان، بدعوى أن عليه أن يطهر بدنه شهرا كاملا قبل حلول رمضان...
يذبحون الأضحية ويفرغون من دمها في إناء تعْمد المرأة إلى وضع مؤخرة قدمها فيه...
تغطي النساء رؤوسهن بقطعة الشحم تفاخرا بكون الكبش سمينا ...
يضعون في فم الكبش حبوبا يجمعها الأطفال يوم عرفة قبل ذبحه مخلوطة بالحناء...
يتبعون جدولا غذائيا محددا، يقومون فيه بتخصيص اليوم الأول للشواء نهارا والكسكس بلحم الكتف الأيمن ليلا، وتخصيص اليوم الثاني للحم الرأس والشواء نهارا ثم التريد باللحم ليلا، أما اليوم الثالث فيخصص للشواء نهارا والطاجين ليلا...وما بقي يعلق قديدا أو لفائف شحم حتى يجف... يحترمون هذا الجدول أكثر من الفرائض إن أدّوها...
من الدواوير من يضعون الكبش المسلوخ في سترة بيضاء تشبه الكفن، ولا يقربونه إلا بعد مرور يوم أو يومين...
يقتصر الاحتفال لديهم بعاشوراء على ذبح ديك بلدي وتقديمه مع التريد...
يشعلون النار عند غروب التاسع من محرم، وترمي النساء بداخلها قطعة قديد حتى تُشوى، ويتم توزيعها قطعا صغيرة على الحضور...

يقفز الصغار فوق النار منبسطين، بينما تحيط بها النساء عازفات بالتعاريج مرددات :

كديدة كديدة ...مالحة وبنينة

عيشوري عيشوري... عليك دليت شعوري

كديدة كديدة ملوية على الاعواد

بابا عيشور جا يصـــلي ودّاه الواد

وغير ذلك من العادات والمعتقدات المبهمة... أما علاقاتهم بالأضرحة فتلك حكاية أخرى...

يتهكم الرداد على عباس، فينعته بكونه ازداد في "عام البون"، ولذلك يتبعه النحس أينما حل وارتحل. ويرد عباس قائلا:

-أما أنت يا ابن الجرباء، فقد ولدت ليلة الفيضان، حيث هجمت مياه النهر الجارفة على منزل أهلك المبني في المنحدر، فسوته بالأرض، ولولا أن هربت بك أمك إلى أعلى الهضبة، واختبأت عند بعض الجيران لما رأيت وجهك المنحوس...

يتهكمان على بعضهما البعض، لكنهما لا يفترقان أبدا... فإن اختلاف النحس بينهما لا يفسد للعشرة قضية... يحاول كل واحد من الأهالي أن يجد شماعة يعلق عليها إخفاقات القبيلة...

وحين يتصافيان، يفضي عباس إلى الرداد بما يقلقه، فهو يحس بتراجع قوته البدنية، إذ أصبح يجد صعوبة في ارتياد الأسواق، بينما يتلكّأ ابنه نبيل

في العودة إلى القبيلة ومصاحبته إلى السوق... كما يشكو إليه رغبة ابنته الصغرى في متابعة دراستها الجامعية بعد انتهاء الموسم ونجاحها في امتحان الباكالوريا. كان قلقا جدا من ذلك الوضع المرتقب الذي يجعل ابنته بعيدة عن أمها وأبيها، تصارع أجواء العيش في المدن الكبرى... كان الرداد رغم معرفته القليلة بأمور وحيثيات الدراسة في المدن ، يحاول تهدئته وإقناعه أنها من بنات وأبناء جيلها، وأنها سوف تتعلم وتزداد خبرة في الحياة، ثم يسوق أمثلة بنات من القبيلة، استطعن إكمال دراستهن وامتهان أعمال إدارية وغيرها. لم يكن عباس قلقا من الناحية المادية، لكنه كان يشعر بالقلق عليها مما يرد من أخبار وقصص متضاربة لا تبشر بخير... بل كانت نتائج بعض البنات من القبيلة عاملا مثبطا ومحبطا، فقد حصلن على شهادات عليا، ولم يوفقن في إيجاد عمل منذ سنوات، تماما مثل عدد من الشبان أيضا... لكن الرداد كان يفحمه بالقول إنه منحوس لا يفكر إلا في الحالات السلبية...

طلب الرداد من عباس أن يأخذه معه في الغد إلى سوق الزاوية على متن عربته، فوافق عباس على الفور، تلك كانت إشارة مشجعة، سيكون الرداد ساعده الأيمن في كل شيء... وقبل أن يتفرقا أقبل عليهما أحد المتمدرسين يخبر عباس أن الأستاذ يطلب منه مرافقته إلى السوق على متن العربة. أجاب عباس بالإيجاب، ثم ودع صديقه الرداد على أمل اللقاء عند الشروق... وقبل انصراف الرداد خاطبه عباس قائلا:

"رد بالك راك غادي لزاوية الصالحين والمجاذيب"

زوجة عباس تزاوج بين ربط البغل مع أعمدة العربة وشد أحزمتها وبين تفقد

إبريق القهوة المطبوخ على نار فحم هادئة... الرداد يطل من فوق الأغصان الملقاة على الحوش ويلقي تحية الصباح: "صباحك آ عايشة"، يسمعه عباس، يحمل جلبابه على كتفه، ثم يأمر الرداد بقيادة العربة، تطلب منهما "عايشة" أن يتناولا طعام الفطور، فيمتنع الزوج بدعوى تأخرهما عن الخروج نحو السوق. عرّجا على المدرسة حيث وجدا الأستاذ بانتظارهما، أجلساه بينهما ثم قصدا طريق الزاوية... جو الصباح منعش وجميل، كانت الطريق إلى السوق في الصباح الباكر أجمل فرصة لاستنشاق الهواء النقي، والاستمتاع بنسمات الصباح في فصل الربيع. وعكسها تماما تكون رحلة العودة متعبة جراء العياء وحرارة الشمس... أنصتوا طويلا إلى توقيعات حوافر البغل على الطريق، ثم تجاذبوا أطراف الحديث مع الأستاذ :

الرداد: باز ليك آ أستاذ مع الدراري، حنا عندنا غا زوج أو ثلاثة كيقلبوا لينا المخ...

الأستاذ: البيت مختلف عن المدرسة، كنخدّموا معهم الترغيب والترهيب، وكنحاولوا نشغلوهم باش ما يلعبوش وما يديروش الصداع...

عباس: أودي آ لفقيه هاذ الجيل ما بقاوش يحشموا

الأستاذ: هذا الجيل لي كتدوي عليه شكون ربّاه؟ ياك ربيناه حنا لي كنقولوا كنا كنحترموا والدينا ونحترموا الجيران ونخافوا من المعلم وسير وسير...

الرداد: هي دابا آسي الفقيه حنا السبب باش طلع هاذ الجيل هكذا؟

الأستاذ: كاين أسباب اخرى ، ولكن الأسرة كتبقى هي الركيزة ديال التربية.

ايلا قلنا الشارع سبب، راه الشارع تا يخرجوا ليه من الأسر... ولكن كتبقى المسؤولية مشتركة بين الأسرة والمدرسة والشارع و المجتمع لي تغيرت فيه بزاف د المعطيات...

عباس: ما كاين لي صفاها لهاذ الجيل قد التلفونات...

الرداد: سمحوا ليا حتى الناس ما بقاتش المدرسة كتمثل ليهم أمل في المستقبل، وتيقولوا هادشي قدام اولادهم، لّي ما بقاوش كيعطيوا قيمة للمدرسة وحتى للأستاذ، خصوصا ملي كيسمعوا الطلبة تيقراوا ويشدوا الدبلومات ويبقاوا يشوميوا...أو يخدموا بأجرة قليلة...

عباس: القراية ولات باغا الفلوس... الدرويش صعابت عليه الوقت...

الأستاذ: الحاصل وما فيه، الدنيا كلها صعوبات، ولي ما صبرش ما يدير والو، أنا الاول كون ما صبرت ما نبقاش في الدوار نهار...

عباس : الله يدير تاويل ديال الخير...

"دعك من هذا الحديث المكرور، يجتره الناس بمناسبة وبغير مناسبة"، انتفض راوي الرواة في وجه الكاتب وهو يضيف: " إذا فرغت من حكايات عباس القزحية ولم تجد إلا حديث" البغرير" في القراءة المقطعية، فاقفل الرواية وانتهى الأمر...لقد صبغوا القراءة بجل الألوان عاما بعد عام، كي تبدو مفيدة دون جدوى، وتبين فيما بعد أن تغيير الألوان والعنوان لم يكن إلا بغرض تجاري محض، يحرم التابعين من المتمدرسين، من استعمال نفس الكتاب في العام الموالي... ولم يجدوا في النهاية بدا من الاعتراف بزيف الصباغة وفشل

الإصلاحات جميعها..."

منك لله يا راوي الرواة، لقد أخذتنا نحو أمور سياسية، لا قبل للأسواق بها، وأفسدت علينا الاستمتاع بنسمات صباحية ربيعية ...

لكن بالمقابل، هل هناك سياسة بلا أسواق، وهل ثمة أسواق بلا سياسة؟ في الأسواق توقع المعاهدات والمواثيق وتثبت القوانين والأعراف، وبها تعقد الصفقات والاتفاقيات والتحالفات، وبها تتم المعاملات من بيع وشراء وسلفات وغرامات، وبها تتواصل القبائل وتتصل الأرحام، وبها تتفرق الخصومات وتلتحم الأواصر، وفيها تنكسر النفوس من غي اللصوص والمخادعين وشياطين الأسواق، وفي كل ذلك تنعقد السياسة، وتبدو في حلة أهل السلطة وهندام رجالاتها... ممن يرتاد الأسواق كل أسبوع، أو من يرتادها كل خمس سنوات، أو من لا يرتادها مطلقا، لكنه يتحكم في دواليبها ب"الريموت كونترول" التي لا نجد لها في لغة الأسواق مقابلا...

كانت عربة عباس تقترب من زاوية سيدي اسماعيل، تسير على الطريق المتربة المحاذية للطريق الرئيسية الوطنية، تزعجهم بين الحين والحين منبهات الشاحنات القوية، لكنهم يواصلون التسلية مع قفشات الرداد، وهو يحكي قصة طبيب السوق المعروف، صاحب السيارة العريضة، لا يعرف أحد أين درس ولا أين تعلم أسماء الأدوية وكيف يمارس هذه المهنة أصلا...رجل ضخم البنية، ذو وجه عريض مستدير وبطن منتفخة، لقبه الناس بالطبيب، فكان يحرص على أن يحافظ على سمعته الطيبة، يعطي كل واحد من الدواء على قدر ما يملك من نقود، فقد لا يتجاوز مع بعضهم حبتين أو ثلاثا، ومع

ذلك كان يطمئن الجميع ويدعو لهم بالشفاء ... قال الرداد:
جلست يوما كي أستريح بعد يوم شاق بسوق الجمعة، وكان معي رجلان من البلدة، لاحظ أحدهما أن سيارة الطبيب تتحرك بين لحظة وأخرى، ولم يشاهدوا عبر زجاجها الشفاف أي شخص بداخلها، ولا يوجد بجانبها أي أحد، والجو صحو لا رياح فيه. تكررت الحركات، فنهضوا جميعا واتجهوا صوب السيارة وجلين، فتبين لهم أن الطبيب قد نام بداخلها، وكان يتحرك بفعل الحاذوقة ثم تتحرك بحركته السيارة... انفجروا ضحكا وقهقهة حتى سمعهم الطبيب ، فنهض مسرعا يتبين الأمر...حكوا له ما وقع، فدخل معهم في جو الضحك، بل وزع عليهم أقراص الأسبرين ، ونصحهم باستعمالها عند الشعور بآلام في الرأس...
قال عباس: كل حكاياتك قديمة يا هذا؟"كلشي عندك حامض"
لكن الأستاذ طلب من عباس أن يدع الرداد يحكي، فالحكي أحد الأسرار التي تضمن الاستمرار والاستقرار...
بوصول عربة عباس إلى جنبات السوق، لاحظوا جلبة وسمعوا صراخا، الناس يجرون في كل اتجاه، لا أحد يخبر أحدا بما يدور. جذب الرداد لجام البغل فاستدار عائدا مبتعدا عن السوق، قبل أن يقصد مكان نصب الخيمة. ثم شاهد الجميع ثورا هائجا يجري في كل اتجاه. يتبعه رجال وشبان وهم يصرخون لإبعاد الناس عن الخطر... تبين فيما بعد أن الثور قد أصاب صاحبه بقرنيه، وفر هاربا هائجا يدهس كل ما ومن يجد في طريقه...وكعادتهم في كل هروب أو هيجان، يتعاون البدويون لإيقاف الثور الهائج، فيعمدون إلى استعمال

الحبال المتينة، ويحاولون رميها بشكل يلف سيقان الثور، ويعيق حركته، قبل أن يمسكوا به ويضعوا مقبض الحديد في فتحة أنفه، فيحكمون سيطرتهم عليه، ويعودون به إلى الساحة من جديد...

باعه صاحبه بثمن أقل مما كان يدعي، وهو يقول لمن اشتراه: أريد التخلص من هذا الوحش بأي ثمن، فقد كاد يقتلني... ثم مضى باحثا عن مكان يستريح فيه، تذكر خيمة عباس، فقصدها يلتمس علاج جرحه، ويبتغي مكانا ظليلا كي يسترجع أنفاسه التي كادت تنقطع ألما وخوفا من ضياع الثور... حين وقف أمام عباس في تلك الحالة الدامية، صاح عباس: العربي؟ ما بك يا هذا؟

العربي: الثور...

فهم عباس ما جرى، بادر بمسك العربي من يده، أجلسه على كرسي ثم التفت صوب الرداد يأمره بإحضار علبة الدواء، غسل الجرح ثم وضع عليه دواء، ولفه بضماد... أحس العربي بطمأنينة وهدوء، فانزوى خلف السلع في مكان معزول، وتمدد على ظهره... سلمه عباس كأس شاي، واعتذر عن أكل الرغيف... بعد لحظات قام من مكانه، وجلس بجانب الرداد يحكي له ولعباس قصة الثور مع "الزويتات":

ذاك الثور أتعبني... كان ثورا مزاجيا، يصوم دهرا ويهيج كفرا، يهدأ أياما حتى أحسبه ألطف خلق الله من الحيوان، ثم يثور فجأة مثل بركان خاطف، يدمر كل ما حوله، ويزرع الرعب في نفوس الكبار قبل الصغار. يختبئ الأطفال والشيوخ والنساء، ويخرج الكبار حاملين هراوات وأدوات فلاحية لصد الهجوم، فكنا نقضي فترات طويلة قبل نسيطر عليه، ونعيده إلى مكانه

معصوب العينين، مكبل القوائم، موثوق الرقبة والأنف. كان الجميع ينصحني بضرورة بيعه والتخلص من خطره المحدق... أخذته في الأسبوع الفارط إلى سوق الأحد بأولاد فرج، فأحاط بي زمرة من "الزويتات"، كنت أمسك بالثور صحبة أخي وابن عمي، وأراقب حركات "الشناقة"... أحاطت بنا زمرة منهم، يثنون على الثور قدا وقامة، يسألون عن الثمن، يبتعدون قليلا، يتهامسون فيما بينهم، وسحنات وجوههم تدل على أن شيئا ناقصا في الثور... قصدني أحدهم قائلا: " الثور زين لكن الليكة ما معوناهش" يقصد أن لونه غير مطلوب في السوق... ثم يمضي، ويرسل صاحبه كي يعيد على مسامعي نفس الملاحظة، ثم يغيب قليلا قبل أن يأتيني ثالث منهم ليكرر نفس الملاحظة... وإذا حضر مشتر آخر غيرهم، كانوا يقفون خلفه، يهمسون في أذنه بكلام غير مسموع، ثم ينفض الجمع ... فطن ابن عمي إلى الأمر، فقال غاضبا بأعلى صوته: هل تريدون اللحم أم اللون؟ هل ستشاركون به في معرض أم في مسابقة أجمل ثور؟ لن نبيع هذا الثور أصلا... هذا الثور ليس للبيع...

هممنا بالمغادرة، فتحلقوا حولنا من جديد، قال أحدهم:

-هل تنوون إعادته إلى الإسطبل؟ إنها خسارة كبرى

-لا عليكم "الخطية لي ما شافها حد رباح"

-انتظر قليلا، لم لا تبعه لنا بمائة وستين ألف...؟

- اطمئن، لن أبيعه ولو بمئتين...

التفتوا إلى بعضهم البعض، أدركوا فشل خطتهم ، كانت ملامحهم تدل على

الحسرة والأسف على ضياع همزة القطع من رأس الثور المنشود...
قررت بعد ذلك السوق أن أغير الوجهة صوب الزاوية، وفكرت في حيلة تدفع عني كيد "الزويتات". اشتريت صباغة سوداء تستعملها النساء لصباغة شعرهن، طليت الثور بكامله حتى بدا أدهم لامعا، وأتيت به اليوم إلى السوق، فحصل لي ما حصل، لكن أخي وابن عمي تمكنا من بيعه بثمن يوازي مئتين وعشرين ألف... لقد انتقمت من أولئك الأوغاد المخادعين، رغم إصابتي هذه...
قال الرداد: وهل ثمة مخادع أكثر منك؟ سوف يشبعونك ضربا يوما ما، حين ينتبهون إلى الأمر، أو يطالبونك باسترجاع أموالهم...
العربي: هيهات هيهات...
الرداد: انتقلنا من صباغة الحمير إلى صباغة الثيران...وهل ستظن أنك ستربح يا "العريبي"؟
-اسأل نفسك هذا السؤال أيها الكاتب المفتون بالدهان، بحروف مصبوغة مرسومة بالبنان، لمن تكتب إذن أيها الهائم الولهان؟ لم يعد في المدينة قراء ... وتوهِمُ نفسك أنك ستغير العالم... (هكذا أصر راوي الرواة على قطع الحكي والتدخل من أجل إحباط عزيمة الكتابة بداخلي، وكبح جماح رغبتي في إفراغ ما بجعبتي من حكايات ...)
فيكمل الرداد حكاية العربي قائلا:
قصد العربي المستشفى فيما بعد من أجل رتق جرحه الغائر، أحس بدوار، فسقط مغشيا عليه أمام باب المستشفى. رفضوا استقباله وعلاجه بعد استفاقته من غيبوبته حتى يؤدي ثمن الدخول، ويترك بطاقته الوطنية مرهونة

لدى مكتب الاستقبال... بعد حضور عائلته، والدخول في شنآن وفوضى مع الحراس، تمكن أخيرا، بعد تدخل الطبيب، من ولوج قاعة الكشف. أكد الطبيب ضرورة إجراء فحص دقيق بالأشعة. توجه فورا صوب قسم الفحص بالأشعة، ففوجيء بإعطائه موعدا بعد ستة أشهر. حاول شرح حالته دون جدوى. نفس المسؤول الذي حدد له موعدا بعد ستة أشهر هو نفسه الذي حذره من التأخر عن إجراء الفحص بعد اطلاعه على وصفة الطبيب، وهو نفسه الذي خيّره بين إجرائه لدى الخواص بثمن باهض، أو استعطاف الطبيب من أجل إجرائه في أقرب وقت... في غمرة الحيرة والفزع والتيه، لم يجد العربي بدا من الرجوع إلى مكتب الطبيب الذي أخبره أن مهمته هي الفحص ليس إلا، وأن من يحدد المواعيد هم الإداريون. رجع من جديد إلى الإدارة، استفرد بصاحبه، وتمكن من إيجاد صيغة كلفته ربع ثمن الثور... خرج وعائلته يحمدون هذا النوع من التصرف: أن تعطي نصف المبلغ خلسة خير من أن تدفع الثمن بكامله...أن تتفاهم مع الدركي أو الشرطي خير من أداء مبلغ غرامة مخالفة قانون السير بكاملها، أن تعطي الموظف مبلغا يسيرا خير من الرجوع مرات ومرات من أجل استلام شهادة... أصبح الدهان ساري المفعول في الأذهان والأبدان. عاد العربي إلى بيته بعد يوم عصيب، تمدد على فراشه يسترجع شريط ما حصل، ويتذكر تلك المواضيع والمواعظ التي تعلمها وأقرانه في المدارس والمساجد متسائلا:

ترى هل تعلّم هؤلاء في نفس المدارس التي علمتنا الأخلاق وحسن المعاملة؟

التفت إلى فعلته فضحك ساخرا من نفسه : " لقد صبغوا (السكانير) وغيره

كما صبغتُ الثور المنحوس". اللهم سلّم...
سلّم الله الأمر، فقد كانت نتيجة الفحص سلبية بالتعبير الطبي، إيجابية بالنسبة للعربي، إذ طمأنه الطبيب عن حالته، وأمره بتناول بعض المهدّئات ولزوم ثلاثة أيام من الراحة ، واستبدال ضمادات الجرح كل يوم...
تغلب بعد أيام على جرحه الجسدي البائن، لكنه كغيره من الأهالي يغالبون جراحات خفية شتى، جراحات تنعكس في مرايا الذاكرة بكل ألوان الطيف وألوان الصيف الكهربائية... جراحات ضاقت بها مساحات الصدور، فاستحالت في الواقع خلافات وصراعات في المحاكم، وفي الحلبات والأسواق عراكات ونزالات ومظالم، بل أوصلت الكثيرين إلى السجون أو المقابر، من تجرأ على قتل الآخرين قتل، ومن لم يتجرأ على ذلك قتل نفسه... يذكر أهل القبيلة قصة "العيرود" الذي ارتكب مذبحة فظيعة، استغل غياب الرجال إلى السوق، حدّ شفرة سكين كبيرة وأجهز على عائلة بأكملها، ذبح الشيوخ والنساء والأطفال من الوريد إلى الوريد، ثم سلم نفسه للدركيين... عاشت القبيلة بأسرها حزنا ورعبا لا مثيل لهما، وانتقل الخبر إلى سائر القبائل، بل إلى العالم بأسره... أودعوه السجن، بينما تناسلت عبر أحاديث الناس حكايات وحكايات، حاول الناس من خلالها تصريف الرعب والأحزان التي أبعدت عنهم النوم ليالي وأياما... وغيرهم توسلوا بأصناف المخدرات السائلة والجافة والمسحوقة، المشروبة والممضوغة والممصوصة والمدخَّنة... الرداد كانت تنتابه موجة هلوسة فيحدثه شيطانه بسياقة شاحنة كبيرة، والهجوم على السوق ودهس الجميع بلا استثناء... يفكر بها جهرا أمام عباس، فينهره هذا الأخير قائلا:

اصمت أيها المجرم الشرير... واستعذ بالله من شيطانك هذا...
الرداد إنسان مسالم رغم هلوساته، لم يكمل دراسته لكنه كان يحسن القراءة والكتابة، كان رغم كل شيء محبوبا لدى الناس، معروفا بغرامياته البدوية سابقا، تثني الفتيات فيما بينهن على جمال شعره الأسود وشاربه الكثيف ولحيته المعفاة من القص... وتمدحن طريقته في معاكستهن، وتستلطفن حكاياته عن مغامراته القديمة... كان يحفظ الكثير من أبيات الشعر، يحلو لهن سماعها منه، فقد كان يبدأ حكاياته بإلقاء أبيات يشد بها انتباههن من قبيل، قال الشاعر:

إذا جئتِني ذات يوم في ثوب كعشب البحيرات أخضرْ
وشعرك ملقىً على كتفيك أسودا كليل مبعثرْ
فلا تنعتيني بموت الشعور ولا تحسبي أن صمتي حجرْ
أحبك فوق المحبة لكن دعيني أراك كما أتصورْ

تُردد أحداهن مبتسمة: كيف تحفظ هذه الأبيات؟ ومن أين تعلمتها ؟
يبتسم دون أن يرد، ثم يحكي لهن حكاية الأصمعي مع الفتى العاشق:
جاء الأصمعي إلى صخرة، فوجد مكتوبا عليها:
ألا أيها العشاق بالله خبروا إذا حل عشق بالفتى كيف يصنع
فكتب ردا عليه:
يداري هواه ويكتم سره ويصبر في كل الأمور ويخشع
عاد الفتى فقرأ البيت ثم كتب:
كيف يداري والهوى قاتل الفتى وفي كل يوم قلبه يتقطع

جاء الأصمعي فرد قائلا:

إذا لم يجد بدا لكتمان سره فليس له شيء سوى الموت أنفع

جاء الفتى فقرأ البيت وكتب:

سمعنا وأطعنا فمتنا فبلغوا سلامنا إلى من كان بالوصل يمنع

رجع الأصمعي فوجد الفتى ملقى على الأرض ميتا فكتب:

نعيما لأرباب النعيم نعيمهم وللعاشق المسكين ما يتجرع

كانت الفتيات تطرن فرحا بسماع هذه الأشعار، وتستفسرن الرداد عن معانيها، فيشرع بعد ذلك في قص غرامياته القديمة دون ذكر الأسماء، وكن

يتبادلن الشكوك بالنظرات حول من تكون المقصودة بالحكاية من نسوة الدوار... يحكي لهن قصته مع العطار الذي كان يحمل رسائله إلى فتاة تعلق بها بالمدشر المجاور، لم يكن باستطاعته مقابلتها، لكنه كان يبعث إليها مع العطار هدايا وكلمات مكتوبة على ورق الدفاتر القديمة... ظل على هذه الحال مدة طويلة كلفته الكثير من المال وعناء الشوق والانتظار، كان يغدق على العطار كي يلين قلبها ويجعلها أكثر ميلا وطاعة... وما هي إلا أن تقاطرت على الرداد رسائل مكتوبة منها، فعاش أسعد لحظات عمره، وبات يُمنّي النفس بلقائها، فاتفقا معا على اللقاء يوم السوق بالمرعى المجاور للدوار، ساق أغنامه صباح ذلك اليوم، وحملت أغطيتها تنوي غسلها في ساقية الماء، كانت مصحوبة بإحدى صديقاتها. ترك الأغنام في عهدة كلبه الحارس، وجلس قبالة الساقية، طلب منها أن تملأ قنينته بالماء ففعلت على استحياء، فوجدها فرصة للحديث

معها لأول مرة... استمرت صديقتها في غسل الأغطية، ولم يفترقا إلا بعد مرور عربة غريبة... ساق الأغنام ثم قفل عائدا كأنما يحلق في الفضاء فرحا بأول لقاء...

سألته إحداهن: وماذا وقع بعد ذلك؟

فأجاب: مات العطار، فلم أجد بدا من خطبتها، ثم تزوجنا، فاكتشفَتْ بعد حينٍ أن الحمارة التي اشتريتُها ذات يوم، كانت هي نفسها تلك التي بعتها منذ أسبوع، كانت حمارة مصبوغة... أرأيتن عاقبة الحب؟

تضحك البنات كثيرا، وتودعن الرداد على أمل اللقاء في حكاية أخرى...

مرت الأيام لم تعد البنات تُقبلن على حكايات الرداد، فقد طغت النوافذ المفتوحة عبر الهواتف على نافذة حكي الرداد... أشياء كثيرة زحفت على البوادي في زمن الكهرباء والهواتف والأنترنت، انبهر البدو بحياة أهل المدن، فغيروا الكثير من العادات والطباع والتصرفات، فتبدلت بالاختلاط لهجتهم وتعرضت كثير من مفرداتها البدوية القحة للنسيان والإهمال، فعم الاقتراض زمن الافتراض... وزحف الزفت والإسمنت على الأراضي والحقول كما زحف الجشع والخمول على النفوس والعقول، وبدأت الهجرة المعكوسة صوب البوادي المكهربة...وتسيّد المشهد أولو الأموال والأنساب والأضواء...فرأى الفقير في الغني صفة الجبار المعاند، ورأى الغني في الفقير صفة الناقم الحاقد، فبات الاعتدال ضربا من خيال أو محال...تقاربت أسواق الأثرياء حتى أصبحت الصفقات تعقد بالضغط على سطوح الهواتف وأزرار الحواسيب، وظلت

أسواق البوادي تراوح أمكنتها في حنين دائم إلى سابق أزمنتها...
الحنين الذي يربط الرداد بحلقات الفرجة، ويربط زوجة عباس بمقاهي الإسفنج والشواء والشاي، ويربط عباس بخيمته وأمكنتها المتنوعة بين سوق وسوق، ويربط الكلاب بالمجزرة، ويربط التجار ببعضهم البعض...لا ينسى عباس يوم مات الخلفي، تاجر الأثواب البدين الذي اشتهر في السوق بمناصبته العداء لجاره العوني، تتناهى خصوماتهما كل صباح وكل مساء إلى أسماع المتسوقين، حتى باتوا يشمئزون من صراخهما... كانا يتخاصمان لأسباب تافهة، ويبدو أن كلا منهما بنى كينونته على معاداة الآخر. شخصان تافهان، لا يراعيان حق الجوار أو حق الطعام... ينهاهما عباس مرارا فلا يلقيان لنصحه بالاً... ذات صباح، بنى العوني خيمته، وانتظر قدوم جاره الخلفي الذي تأخر ذلك اليوم على غير عادته، كان العوني يقتعد كرسيا من خشب ودوم، يلتفت يمينا وشمالا، ينتظر ظهور غريمه، وقد أعد له من البارود الأبيض ما يثير حنقه. فجأة نزل على التجار خبر وفاة الخلفي كالصاعقة. ترحموا عليه، وقرروا جمع الخيام قبل الظهر والالتحاق بمنزله كي يحضروا الجنازة. فهو رغم عداوته مع العوني كان شخصا ودودا مع الجميع، فربما كان العوني يثير غضبه باستمرار، ويقسو عليه لسبب يجهله... لحقوا بموكب الجنازة ، وساروا صوب المقبرة مكبرين مهللين، مصلين على سيد الخلق أجمعين... دفنوا الرجل، وهموا بالانصراف، فشاهدوا رجلا يجلس القرفصاء عند قبره، يبكيه بحرقة بالغة، كانت دهشة التجار كبيرة حين علموا أن الرجل الباكي لم يكن سوى غريمه العوني... تبادلوا نظرات الاستفهام والحيرة، وذهبوا نحوه، أمسك بذراعه

أحدهم، صبّره بكلمات، ثم اقتاده خارج المقبرة ودموعه على خديه...
أيعقل هذا؟ لقد كان إلى وقت قصير يكيل له وابلا من الشتائم، ويتنمر عليه غدوا ورواحا... بات سكان القبيلة يتحاكون قصته دون أن يفهموا شيئا. لكن الأستاذ بمدرسة الدوار، كان يقول: لا تعجبوا كثيرا، فقد بنى العوني كينونته على عداوة المرحوم، فمن الناس من لا يستطيع العيش دون تدافع ، وكان يضرب المثل بالغرب، حيث ظل الحلفاء يناصبون العداء للعدو الأحمر طيلة فترات الحرب الباردة، حتى إذا شتتوا شمل الاتحاد السوفييتي السابق، وجدوا أنفسهم في موقف صديقنا العوني، فراحوا يبحثون عن جهة يناصبونها العداء، كي يجدوا المبررات التي تخول لهم امتلاك ثروات الأرض، فاتخذوا من الإسلاميين عدوا، واتهموا العراقيين بامتلاك أسلحة الدمار الشامل، وعاثوا في بلاد المسلمين فسادا ...وهم الآن بصدد عداوات قديمة جديدة... ربما اعتقد العوني أنه بموت الخلفي لن يجد من يشعره بكينونته، وأن عليه أن يجد عدوا جديدا كي يستمر على قيد الحياة. لكن عباس كان يعارض رأي الأستاذ فيقول:
لقد أشفق العوني من حال جاره رغم العداوة القديمة بينهما، ولذلك أذرف الدموع ندما على ما فات... ربما...
يتحاكى الناس في الأسواق وفي غيرها، تلك العداوات الخفية بين التجار والحرفيين، وذلك التنافس الصامت، خصوصا بين أولئك الذين يتاجرون في نفس البضاعة أو الذين لهم نفس الحرفة، يقولون: (خوك في الحرفة عدوك...) لاحظ هؤلاء وأولئك أن بعض البقالين من تجار التوابل والعطور والفواكه

الجافة قد ازدادت ثروتهم بشكل ملحوظ في زمن وجيز، فباتوا يحتكمون دورا فاخرة في المدن والبوادي، ويقتنون الأراضي الفلاحية و بضع شاحنات وسيارات، بل أصبحوا يرسلون أبناءهم للدراسة في الخارج... بينما لازال كثير من الحرفيين وتجار السلع المعروف سعرها يراوحون أمكنتهم ومكانتهم المادية... كان ذلك مدعاة للتساؤل والحيرة، بل كان مدعاة للقلق لدى من يرغبون في الاغتناء منهم... زعم البعض أنهم يستغلون عدم معرفة الناس بأثمنة التوابل والفواكه الجافة وعدم تسعيرها فيعمدون إلى الزيادة كيفما شاؤوا، بل إنهم يبيعون المادة الواحدة بأسعار متباينة حسب الزبائن... وزعم آخرون أنهم يخلطون الشاي الجيد مع الشاي الرديء ثم يبيعونه بثمن الشاي ذي الجودة الممدوحة... وزعم آخرون أنهم يدقون بعض الحبوب ثم يخلطونها بالتوابل والبن... وادعى آخرون أن السر في اغتناء هؤلاء هو بيع الممنوعات سرا... ومهما يكن السبب أو الأسباب فقد خلقت تلك الفوارق الطافية على السطح نوعا من الشحناء والتنافر الخفي، فاختفت الجلسات الجماعية الصباحية قبيل بدء الرواج، حول صينيات الفطور، وتحولت إلى تجمعات طبقية، ينعزل فيها ذوو المال فيما بينهم، ينعتون الآخرين بالحاقدين، ويتجمع فيها البسطاء من التجار والحرفيين ينعتون الآخرين ب"كروش الحرام"، ومع ذلك لا يجد الطرفان بدا من التعامل مع بعضهم البعض، تعامل فيه كثير من الحيطة والحذر، وكثير من الريبة والتوجس... ودون هؤلاء وأولئك، بدو قادمون هائمون، تركوا عرباتهم في جنبات السوق، مصطفة كالمدافع في حرب ضروس، وبجانبها بغال وحمير تجر عرباتهم، وتحمل أثقالهم إلى أسواق لم يكونوا

بالغيها إلا بشق الانفس، ولهم فيها جمال حين يريحون وحين يسرحون، و بجانبها أحصنة من النوع الرديء، لم تعد تصلح لسباق أو استعراض أو حتى تبوريدة...تستخدم لجر العربات، فإن طال بها العمر وعجزت عن ذلك، بيعت بأبخس الأثمان وقُدِّمت طعاما للأسود أو النمور أو الفهود في حدائق الحيوانات...هذا إن سلمت من الوقوع في أيدي باعة النقانق المشوية...ألم يوقف "أصحاب الوقت" يوما أحدهم متلبسا بسلخ حمار؟ ما أبشع أن يتهافت حثالى الباعة على جني المال، ولا مانع لديهم أن يأكل الناس لحم الحمير أو الكلاب أو غيرها مما لا يلذ ولا يطيب... سئل الرداد بعدما ألقي القبض على صاحب النقانق الذي كان يتغذى عنده: كيف كان مذاقها؟ فأجاب بأن العفريت كان يكثر التوابل، فكانت أكلته لذيذة للغاية. وحين كانوا يسخرون منه زاعمين أن جسده يحتاج عاما كاملا كي يتطهر من لحم الحمير، كان يرد ساخرا: ألم يقل كبور (ايلا قلتي بسم الله هو لي يدي الذنوب)؟ ثم يضيف: وماذا حصل إذن ؟ ها أنا ذا قوي مثل حصان جامح... يعلم الله ماذا تأكلون وتشربون في زمن المعلبات المصبوغة بشتى ألوان الطيف وألوان الصيف... روايات من هذا النوع ونحوها، تتضارب وتتكالب في زمن الهواتف، غير أنها لا تنتهي... كثرت الإشاعات حتى التبس الصدق بالكذب، فكذب السياسيون حتى صدّقوا كذبهم وصدقهم البعض، وكرروا كذباتهم دون أن يتعظ السامعون، واستدلوا عليها بالصور الخادعات، فتحول المشهد من الأبيض والأسود إلى مشهد متعدد الأشكال و الألوان...

يعود الأستاذ عبد الرحمان الغويط لزيارة صديقه عباس في سوق الخميس

هذه المرة، زيارة تدخل الفرحة على قلب عباس وقلوب مجالسيه من العائلة وأهل المدشر، فهي زيارة مختلفة عن كل الزيارات، خصوصا حين يوافق الغويط على المبيت عند عباس، فتلك لعمري فرصة للاستمتاع بأحاديثه الشيقة ورواياته المثيرة عن الأولين... كان الغويط يجد في تلك الجلسات مناسبة لطرد ذلك الإحساس بالاغتراب وسط الجموع، في مدينة جنحت صوب المال والإهمال في تدافع وتفاخر وتكاثر لا نظير له عبر التاريخ الآفل... كان يحس أنه نشاز وسط أناس يلعبون أدوار الملهاة الكبرى، كل على طريقته... يستغربون تصرفاته حين يقرأ كتابا في مقهى أو حديقة، وحين يستشهد في كلامه بأقوال المفكرين والفلاسفة والشعراء وغيرهم، فقد باتوا يستشهدون بكلام "الشيخات والحلايقية وغيرهم من القوّالين" ... على الأقل كان عباس وندماؤه ينصتون إليه بإمعان، يفهمون أو لا يفهمون، يتعظون أو لا يتعظون، المهم أن يجد فيهم آذانا صاغية وألسنة خرساء ووجوها عليها طلاء الاستغراب والدهشة...

يبادره أحد البدو بسؤال عن الكلية، ما تكون تلك البناية العظيمة الشاهقة، المترامية البنايات والحدائق والممرات؟ فكان يقول:

الكلية سوق أخرى، تمتلئ بالزوار طيلة الأسبوع ما عدا الأحد، بينما تمتلئ بقية الأسواق يوما وتفرغ بقية الأيام... إنها سوق مفتوحة في وجه الرجال والنساء، المجدين والمتكاسلين، الأسوياء والجانحين، المقسطين والغشاشين، الصابغين والمصبوغين... تتفرع الشعب كما تتفرع الرحبات في الأسواق، تنعقد الفصول كما تنعقد الحلقات، غير أنها سوق لا تقف على هوامشها العربات والبغال، بل

سيارات من كل صنف ولون... وإذ يترفع البدويون في الأسواق عن ألفاظ الغرام، درءا للخجل وحرصا على الصرامة والكرامة، تمتلىء ساحاتها بما لذ وطاب من مفردات العشق لدى البعض، وما ابتذل وخاب من مفردات الفسق لدى آخرين...

امتعض راوي الرواة من هذا الخلط بين عالم الكليات وعالم الأسواق، وأشاح بوجهه عن الكاتب الذي آثر الاستماع إلى الغويط وهو يجرب خلطة سحرية، يريد أن يعرف انطباعات البدو وهم يسمعون كلاما في الحب، يقرأ عليهم ما جادت به قريحته يوما:

تقول طالبة في الكلية:

دعني في الباحة
أرشف قهوتي بالدَّين
لا تسلني من أين
ليس في جيبي ثمن
مفلسة أنا...
منذ الولادة يا زمن
تلك الرياح العاصفات
تخضني خض السفن
فلا أرى في بياض الموج
غير الكفن...
مسافرة أنا كل يوم
بلا طيران وبلا عوم

عبر السحاب
من الصين إلى عدن
على جناح العشق
حدّ الوسن...
اتركني وحيدة
أرتجل المتاهات
كي أصل المدرّج
أجلس في آخر الصفِّ
أرى قفاك مثل رفِّ
به كتاب عمري
يحتار الأستاذ في أمري
فيصفعني بلا كفِّ
وأعود أدراجي
أقلّب تلك الأحاجي
عن غرام لم يكن قط
على مزاجي...
عن حياة لا يستقيم
بها اعوجاجي
عن المكوس عن الأتاوات
عن الخراجِ
أستنسخ تلك الدروس

تجمعها أسلاك الرؤوس
فأمضي
تشربني الشوارع
وضوضاء كالمدافع
حين ينطلق المزاد...

فيجيب طالب:
كلماتكِ جاءت
على غير عادة
علقتها على صدري
وساما و قلادة
اعطفيني على النمل
فالنمل مفتون بالزيادة
واعطفيني على الشعر
فالشعر مفتون بالريادة
وأنا أبحث في عينيك
عن قصيدة وولادة
هل تدركين في الأصل
أن هذا النمل
لا يعرف تحديد النسل
فالنملة لا تحيض

لكنها تبيض
كي تزيد سواده...

فترد الطالبة:
تتلاطم في داخلي الأنفاس
أنا ما اخترت رؤياك
كانت غلطة الحراس
لم يحجبوا الرؤية عن دربي
لم يمنعوك من الدخول
إلى قلبي...

صمت الغويط لحظة، نظر في أعين البدو، كانوا يتبادلون بنات العيون وهي تعني أنهم سمعوا كلماته ولم يفهموا شيئا...قلل الرداد من شأن ما يروج في الكلية قائلا: هذا يا أستاذ مجرد كلام لا يباع ولا يشترى، يبدو أن "سوقكم خاوي ما فيه فلوس" ... ضحك الغويط، فانهار جدار أفواههم ضحكا واستهزاء بالرداد، وانقلب الجمع من دائرة الوجوم إلى جلبة الهزل والسخرية...
السلام عليكم، قالها وافد جديد على بيت عباس، لم يكن سوى فقيه المسيد... فسحوا له في المجلس بجانب الغويط بعد أن ردوا السلام جميعا.
البدو يسلمون في قراهم على من يعرفون ومن لا يعرفون، يزعم فقيه المسيد أن سبب ذلك راجع إلى قلة الناس، فإن الواحد منهم يقضي النهار كله

في المرعى دون أن يصادف أحدا... ولذلك يبادرون بالسلام على كل من يلاقون... أما أهل المدن فإنهم لا يسلمون إلا على من يعرفون، وقد يرجع ذلك لكثرة الناس هناك، فهم إن سلموا على من يعرفون ومن لا يعرفون لن يفرغوا من السلام أبدا، لذلك تركوا السلام فاشتعلت بينهم حروب الشحناء والتناحر والتفاخر والتكاثر... لم يتدخل الغويط للرد على فقيه المسيد سلبا أو إيجابا صونا لمكانته لدى الأهالي وحفاظا على هيبته الدينية...

انهالت أسئلة الحاضرين على الغويط من كل صنف ومجال:

-أستاذ، علاش الظهر والعصر والعشاء فيهم اربع ركعات والصبح غا زوج والمغرب ثلاثة؟

-أستاذ، علاش هاذ الانتخابات كاع مادام لي جا ما كيدير لينا والو؟

-أستاذ، علاش ملي درنا الكمامة عا ما تزاد المرض؟

-أستاذ، هاذ الفلوس ديال الصنك والمورطة اش كيديروا بها؟

-أستاذ، واش هاذ الجفاف والحرب هوما لي غلاو كلشي ولا المازوط؟

-أستاذ، دابا حنا وصلنا نصف نهاية كأس العالم في الكورة، وعلاش ماتقدمناش فشي لاخر؟

-أستاذ، كيفاش الدراري كيقراوا تا يعياوا وما كيخدموش؟

-أستاذ، علاش كلشي ولى داير لهّاية في يدو النهار وما طال والليل كلو؟

استغرقت توضيحات الغويط وقتا طويلا، فتدخل عباس قائلا:

سيادنا لي عندو شي خيمة يمشي ليها خليوا الأستاذ ينعس راه تابعاه الطريق

والخدمة الصباح...
تكررت بعد ذلك غيابات عباس عن الأسواق بسبب نوبات الألم التي كانت تجتاح جسده، بدا وكأنه ينحاز صوب الوهن... لقد خطر على باله أن يتكرر غيابه عن الأسواق يوما ما، أو يتغيب أحد زملائه من التجار والحرفيين وغيرهم، لكن لم يخطر على باله قط أن تغيب الأسواق جميعها عن الانعقاد دفعة واحدة، ولمدة تتجاوز أشهرا معدودات... كان أمرا فجائيا غير مفهوم، أن يخطب في المدن والقرى قواد وشيوخ ومقدمون فيعلنوا ضرورة لزوم المنازل والمآوي، وعدم الخروج أو التنقل إلا لغرض قاهر وبترخيص من السلطات... حجر صحي قاهر، عطل عجلة الرواج والعمل، وأربك الجميع، فتهافت الناس على تأمين الغذاء قبل كل شيء...اتخذت تدابير أمنية وصحية وإدارية صارمة، ومع ذلك انتشر الوباء شيئا فشيئا، فلزم الناس مخابئهم وخلت الشوارع والحدائق والشواطئ وغيرها من الناس، فتنفست البيئة الصعداء، بينما كانت الأنفاس تختنق في المستشفيات والمصحات والبيوت رعبا وهلعا... مات كثير من المصابين بشتى الأمراض، وتمكن كثيرون من النجاة، ودفن الموتى دون حضور ذويهم... طال أمد الوباء، وبدا الخلاص في لقاحات تعددت أسماؤها ومشاربها ، وحامت حول جدواها الشكوك، وانتهت الزوبعة بالتناسي ثم النسيان، وعادت كل حليمة إلى عاداتها القديمة، دون أن تستعيد كافة حيويتها ونشاطها الذهني وصفائها النفسي. فقد ترك الوباء جروحا غائرة لا ترى ...

تفاقمت حالة زوجة عباس التي كانت تعاني من مرض في الجهاز التنفسي،

رفضت أن يأخذها زوجها إلى المستشفى مخافة أن توسم بالوباء، وظلت تعاني حتى قضت نحبها. تجمهر الأهالي حول خيمة عباس رغم تحذيرات شيخ القبيلة ومقدم الدوار، بكتها النساء بحرقة بالغة، فقد كانت أحن عليهن من كل النساء. تناقصت الأعداد بفعل تهديدات الشيخ والمقدم، وقصد النعش المقبرة في جو كئيب مهيب، كان أهل الدوار يراقبون النعش من بعيد، يلوحون بأياديهم، وفي قلوبهم حسرة على جفاء العزاء وفراق سيدة أحبها الجميع، واعتبروها أما ثانية. بناتها كن في حالة من الدهشة والذهول، جافاهن الدمع لحظات، وانهارت إحداهن عند مغادرة النعش... ابنها نبيل لم تسعفه المسافات كي يحضر وفاة والدته، أخبروه أنها تحتضر، ركب الحافلة وقصد البلدة عائدا، تمنى أن يصل بسرعة ويحمل والدته إلى الطبيب، لكن الأجل لا يستاخر ساعة ولا يستقدم، كان مشهدا مرعبا أن يرى وهو قادم من أطراف البلدة تلك الجموع المحتشدة، اقترب ببطء وقدماه لا تكادان تحملانه، وقبل أن ينبس بسؤال، كانت عبارات التعازي تنهال على سمعه مثل القذائف الحارقة... "البركة فراسك" "الله يرحم المية" "الله يجعل مقامها الجنة".... أما عباس فقد كان يقف واجما، يتكئ على منساة، ينظر إلى الزوار بعينين جافتين، يتتبع مسارات لا حصر لها، بل يرى في موت رفيقة العمر نهاية مسار.

عادت الأسواق من جديد، تفتح ذراعيها للزوار المكمين، وتعرض سلعها على الأتربة أو على أقمشة أو قطع بلاستيكية... سلع تنال حظها جميعها من غبار الأتربة، فريح السوق إن هدأت صباحا، تثور بعد انصرام الظهيرة... والبدو

منذ القديم لا ينزعجون من الغبار، بل يتعايشون معه، ويأكلون دون غسل أياديهم من العمل في الحقول أو تقليب البضائع في الأسواق، معتبرين "يد الفلاح نقية"
يتمردون على النصائح الصحية المبثوثة عبر وسائل الإعلام... الطامة الكبرى أن تمطر يوم السوق، فتختلط السلع بالوحل، وتطفو الخضروات على سطح المياه المتسخة، فيبدو التسوق ضربا من المغامرة الساخرة...

ماذا جنيت من الأسواق المتتالية يا عباس غير وسواس يقض مضاجعك الساخنة؟ حين يضيق الحذاء تضيق المسافات، حين يضيق البصر تضيق الآفاق، حين يضيق السمع تضيق الأصوات، حين يضيق القلب تضيق العلاقات، وحين يضيق الفكر تنعدم الحلول... الجلوس على حافة العمر مدعاة للتأمل فيما مضى، مدعاة للتقليل من شأن الحاضر، مدعاة للخوف من المجهول... وحده أخوك الفقيه كان يبدد وحشة أفكارك، حين يقلل من شأن الدنيا بأسواقها وأبواقها وآفاقها وأنفاقها وأرزاقها ... ويريح قلبك بالصلاة على الحبيب المصطفى... ماذا جنيت من هذا الطواف غير لحية بيضاء تخللها بأصابع يديك، وتشد عليها شدا لا يكاد يبدد مخاوفك المستيقظة بعد سبات... يغزو الحزن والضجر صدر عباس، فيسلم زمام الخيمة لصديقه الرداد، ويهيم جائلا بين الساحات الغاصة بالمتسوقين وبين الخيام المليئة بالسلع... فجأة يرى قائد المنطقة مارا وسط السوق، فيتقدم أمامه دون شعور، يهش على الواقفين كي يفسحوا الطريق للسيد القائد، وتأخذه حماسته إلى ركل البعض برجله قائلا:

"حيدي ابطاطا خلي اللحم يدوز..." يضحك القائد من تصرفات عباس، ويأمره بالكف عن ذلك، فيتوارى عباس عن الأنظار قبل أن يتوارى القائد وسط الخيام... يدخل عباس خيمة علال الشفناج المملوءة عن آخرها بالزبائن، يرحب علال بصديقه عباس، يخرج ثلاث اسفنجات من المقلاة، يصب الشاي من براده الخاص ويسلم إليه صينية صغيرة أمام اندهاش الزبناء المنتظرين دورهم منذ دقائق...يلاحظ عباس اشمئزاز الزبائن من فعلة علال، لكنه بات بين مطرقة نظراتهم المستنكرة وسندان عدم القدرة على رفض الحفاوة التي خصه بها صديقه علال. تدارك علال الأمر قائلا:

-اصبروا اصبروا... ستنالون بغيتكم جميعا، ستتناولون الأصفار، تشبعون أول النهار، ثم تجوعون بعد ذلك...

-قال أحد الزبائن: "الدنيا بالوجوه والاخرة بالزراوط"

صوت المزمار والبندير تدخل أخيرا ليكسر هذا الجدال العقيم، ثنائي يتنقل بين صفوف الموائد، يعزف تارة ويدعو للحاضرين تارة أخرى، يسلمه الآكلون والشاربون دراهم معدودة، يتفاعل بعضهم مع أنغام المزمار، ويشمئز منها المنهمكون في تلذذ خلطة الإسفنج و حلاوة الشاي المنعنع...يكمل عباس الأكل، يودع صديقه من بعيد، ثم يقفل عائدا إلى خيمته وسط تعليقات الباعة والمتسوقين، ينعتونه بالتملق للقائد... جعل أصابعه في أذنيه ودخل خيمته دون اكتراث... رغم كونه رجلا محبوبا إلا أنه يتهور في بعض الأحيان خصوصا عندما يكون مهموما... ألم يرسل صهره من قبل إلى المستشفى مغشيا عليه بعد أن ضربه على رأسه؟... فكاد، لو مات، يقضي بقية عمره في السجون... ولعله

في هذا اليوم يزور السوق في حالة غير عادية. فكثير من المتسوقين يقبلون على السوق في حالة خدر من قلة النوم، يستفيقون منتصف الليل، يربطون دوابهم إلى عرباتهم، أو يركبون حميرهم، ويقصدون السوق دون غسل وجوههم حتى...لا يكلمون بعضهم بعضا إلا لضرورة. صباحات الأسواق تبدو كئيبة جدا، تَكْفُرُ كثيرا من التوجس والرهبة، رهبة الزحام، ورهبة الحافلات والشاحنات والسيارات، ورهبة اللصوص والخدّاعين من أصحاب "السماوي" والمخادعين من الباعة والتجار... ثمة أشياء كثيرة غيبت عيون الضمائر الحية، وأدخلت الشك والريبة في كل معلوم ومجهول: طلاق زوجين قد يذكي التنافر بين العائلات... خلاف حول حدود أرض قد يجلب الشحناء من كل صوب واتجاه... خصام بين الجيران قد يضع حدودا وهمية يصعب شطبها...تكاثر في الأموال والأولاد قد يميل كفة القوة في اتجاه دون آخر...تفاخر بالأنساب والأحساب قد يوقد نيران الحسد والبغضاء... أما التنافس على منصب في الانتخابات فتلك طامة كبرى قد تقسم المدشر نصفين تماما كما ينقسم جمهور فريقين غريمين... وتخيلوا أن تنتقل العداوات إلى الأسواق، فلا يبيع طرف إلى طرف آخر، ولا يشتري طرف من طرف، بل لا تتزوج فئة من فئة مضادة... تعددت ألوان المرشحين، فصبغت العقول والحقول بألوان متضاربة، فغدا التنافس من أجل مصلحة الناس تنافسا لخلق الفرقة والعداوات، وتحولت الأسواق إلى مراتع للتناحر والتنافر...حين قل الزرع وجف الضرع آن الجفاف، تطاول على المدشر رعاة رحّل، فغزت مواشيهم الحقول، وأبوا مغادرتها رغم تحذيرات الأهالي، نشبت معركة بالعصي والهراوات والسياط،

فشهدت البلدة يوما داميا لم تشهد مثله من قبل. حضرت السلطات، فشهد شهود من أهل المدشر شهادة زور وانتقام من أعدائهم الانتخابيين... فاضطر الطرف المظلوم للتصالح مع الرحل تجنبا للمحاكم ...انفض النزاع، وذهب الرحل بأغنامهم، بينما تجذرت العداوة بين الأهالي، بين غالب يتشفى ومغلوب يتوفى حسرة وكمدا، وينعت الطرف الآخر بالمزور، فكان الرداد يواجه بعضهم بالقول: " ما عندكمش فين تركدوا يا قبيلة الزور"

ولك يا عباس أن تتخيل ضيق المعاملات وصعوبة العيش لدى من تجمعه بالطرف الآخر آصرة مصاهرة أو قرابة، فقد فرقت الانتخابات بين أبناء العائلة الواحدة، بل أبناء الأسرة الواحدة، فتجد الأب مع فصيل والابن مع فصيل آخر تماما كما يحدث لجماهير كرة القدم... كل ذلك كان يعجب مقدّم الدوار، فقد كان على مسافة واحدة من الجميع، يحدث هؤلاء لمعرفة أخبار أولئك، ويغازل أولئك لتقصي أسرار هؤلاء، وبذلك لا تفوته صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأخبر بها رؤساءه...

تلك العداوات الانتخابية تعضني مثل كلب مسعور... مواساة الأقربين أضحت كالماء الذي يرش على الكلب المسعور فيقتله. والبدو يطلقون على السعار كلمة " الجهل، بتسكين الجيم وفتح الهاء". وبين فصحاي ككاتب مجهول وبين دارجتهم الناطقة جهلا، ينتصب راوي الرواة، يعد نفسه وصيا على الإبداع، يخوض في ذلك حروبا دونكيشوتية خاسرة، يعقد كل حين لقاءات مكرورة، فيجمع نفس القصاصين أو نفس الشعراء أو نفس الزجالين، تتحول غالبية لقاءاتهم إلى أعراس للنبيذ، لا يتطاول عليه أحد إلا سمع ما لا يرضيه، فهو

القادر على احتواء كل أشكال الكتابة ...ينشر أخبارها في صفحته على مواقع "التواصل الاجتماعي" فلا يجد من "المجمجمين والمعلقين" أكثر من بضع عشرات، بينما تحصل منشورات "روتيني اليومي"وأطباق السلطة على مئات بل آلاف "الجمجمات"... وملايين المشاهدات... كلما ضقت ذرعا بهذا الهراء الماثل على هيئة التكتلات الانتخابية، أغلق علي باب غرفتي أو أقصد الرداد، فنقصد منزل عباس أو خيمته بالسوق، فأجلس بداخلها أراقب حركاته وسكناته، وأقرأ الناس من عيونها مثلما أقرأ الكتب في المعارض والمكتبات من عناوينها. أليس كل إنسان كتابا مغلقا؟ كنت أقرأ الكثير من العيون:

-جزار تتراقص عيناه بين لحم حي ولحم ميت

-إسكافي لا يرى في المارة غير أحذيتهم

-حداد يتابع حوافر البغال والأحصنة

-خضار يراقب قفف المتسوقين....

يا حضرة راوي الرواة، إذا قرأت كتب القدماء والمحدثين، أدعوك أن تفتح كتابا واحدا من كتب الأسواق، أن تفتش ما بداخل رأس الإنسان، أن تفند مقولة السابقين:"كلشي يتفتش حتى لراس بنادم"... لك أن تؤول الكتب كما تشاء، تمتلكها كلما خرجت من عقال صاحبها، فكيف تؤول كتابا لا يبرح عقاله أبدا... عذرا سيدي راوي الرواة، أعلم أنك تريدني أن أخرج سالما غانما من الأسواق... لن أعدك بالتراجع عما بدأت، طالما حشرت نفسي في أغرب ساحة من ساحات السوق، إنها ساحة المتلاشيات (الجوطية). ساحة هامشية لا نظام لها، ساحة بلا قوانين خاصة، لكنها ذات وزن اقتصادي

متباين. ساحة تبدو مثل قصيدة جاهلية غير مفهومة، تحتاج كلماتها إلى قواميس ضاربة في عمق اللغة القديمة. غير أنها قصيدة بلا وزن ولا قافية ولا روي. في ساحة المتلاشيات يخيل إلي أن كل شيء قد تلاشى... حتى سلوكات المرتادين من البدو أو الحضر، سلوكات تشبه ملابس الجوطية، تقادمت وخف بريقها أو زال، فصار الناس أجلافا وأخلافا، لا يتورعون عن دفعك بأقسى قوة، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء الاعتذار...عذرا راوي الرواة، فقد اختلطت علي الأمور وأنا أفتش في ركام من السلع، اجتمع فيها الملبوس بالمأكول بالأثاث بالأدوات بالكتب بأشياء لا يعرف أصلها أو فصلها بائع أو مشتري....

أن تجد أمامك آلة بيانو من صنع ألماني، أزرارها من العاج الأبيض الأصيل، مصففة كأنها قرون فيلة من ساحل العاج، لا يزال عزفها يرن في الآذان، يتلقفها بائع خردة لا يعرف قيمتها، فيرمي بها وسط ركام الأغطية والألبسة والمكسرات من الآلات القديمة، فهذا أمر عجيب...

أن تجد أمامك حواسيب قضى العلماء والصناع سنوات وسنوات كي يخرجوها في تلك الصور، يهوي عليها عامل مفتول العضلات بمطرقة حديدية ثقيلة، فيحيلها في رمشة عين أجزاء مفككة صالحة للبيع حسب المعدن والمادة، فلا تملك إلا أن تحدق وتحوقل...

أن تجد أمامك كراسي مفككة، انتزعت من طائرة معينة، طوحت بها الأقدار وهي لا تزال تحمل على ظهرها إرشادات للركاب من قبيل:

-ربط حزام السلامة على الدوام

-عدم التدخين والالتزام بالأمكنة

-نصب حاجبات الشمس وطي الطاولات إلى أعلى

-وضع الحقائب الثقيلة تحت المقعد الأمامي

-تفعيل وضع الطيران بالأجهزة الالكترونية

-استعمال سترات النجاة وأقنعة التنفس ومخارج الطوارئ...وهلم إرشادات...

أن تجد أمامك لوحة زيتية لفنان تشكيلي لا تختلف عن تلك التي نالت شهرة بالغة وبيعت بالملايين، يقرؤها كل على قدر فهمه ومعرفته، وتدقق فيها فلا يتبين لك رأس الخيط ولا تفهم شيئا، وقد يكون مثلك من اشتراها بالملايين، فوضعها في ركن من أركان بيته كما توضع سلع الجوطية، وحين تحدث الرداد بالأمر يقول : "كيفاش؟ لوحة مصبوغة تباعت بالملاين، وخا يكونوا صابغينها (الزويتات) ماتجيبش هذاك الثمن"

أن تجد أمامك على سطح الأرض المتربة قنينة فارغة لنوع قديم من الزيوت، وأخرى لنوع قديم من الليمونادا، وبجانبهما كتابا مترجما لرولان بارث، وآخر لميلان كونديرا، وقراءة أحمد بوكماخ، وكتاب النظرات بدون غلاف خارجي، كل ذلك إلى جوار لحاف قديم من نسج امرأة بدوية... فيباع اللحاف وتجمع

الكتب مع باقي السلع بالأرجل، فلا تملك إلا أن تشيح بنظرك في اتجاهات أخرى، وأنت تسمع أحد الباعة في سوق الجوطية يصرخ في وجه زبون يشتكي من غلاء سلعة معينة: "ماعندكش سير فحالك، راه كلشي غلا فهاذ السوق إلا بنادم ما بقى يسوى تا بصلة"...

- الزبون: العن الشيطان اصاحبي

-الله يلعنو ويخزيه، بغيتي تعرف اش كتسوى ، سير للسبيطار وشوف شكون غا يدّيها فيك ايلا ما حطيتيهم، اعطيني بالتيساع اخويا الله يرحم باك، خليني نترزق الله ، غا تخرج مني شي عجب..."

الباعة في سوق الجوطية يجلسون في الهواء الطلق، تلفح وجوههم حرارة الصيف ويكلح جلودهم قرّ الشتاء، لذلك تجدهم في غالب الأحيان قساة القلوب، عنيفي التصرفات، سليطي الألسنة... وربما زاد الوباء الطين بلة... الوباء الذي جعل الرداد ينفجر في وجه العرافة الشهيرة قائلا: لعنة الله عليك وعلى خيمتك، يا منبع الشر والضر، وأس الوساوس والهلوسات... لو في يدي هدمت خيام العرافين على رؤوسهم، وهشمت شقوف الفخار الأحمر عليها، وطليتها برماد أفران الشواء الأسود...ألم يخبركِ قرينك (ماتسمينه "اجوادك") عن الوباء اللعين الذي هلك الملايين؟ تقصدك النساء العاجزات عن مداواة الجراحات البدنية والنفسية، في غياب إمكانية العلاج الطبي. تتخذنك ذريعة للتملص من سجن البيوت، فتقصدن خيمتك وخيام العرافين والرقاة والمشعوذين... وما أكثرهم:

منذ أن أطبقوا على بائع الزبدة ذات يوم، وأجبروه على الاعتراف، أقر أن الزبدة مخلوطة بالبطاطس المسلوقة، فانهالوا عليه ضربا ورفسا، وطردوه شر طردة...

منذ أن أكلنا الجبن المستورد في مطعم المدرسة ذات يوم، عشش الجبن في أوردتنا، فبتنا نخاف كل شيء مستورد، نخاف تحليق الطائرات على مقربة من حقلنا... نخاف ركوب الحافلات والشاحنات... نخاف سيارة رجال الدرك حين تدخل المدشر... نخاف الغرباء القادمين...

و رغم المخاوف تلك، كنا نفرح لأشياء كثيرة:

نفرح لقدوم الفقهاء حين يأتي الدور على مدشرنا، نعد أطباق الكسكس الكبيرة، يحملها رجال شداد غلاظ في شباك الحبال المفتولة، ونقدمها للضيوف مزركشة بالبيض المسلوق و"فانيد المكانة"...

ونفرح في أعراس بلدتنا وولائمها المتعاقبة حسب ظروف الطقس...

ونفرح في الأعياد والمناسبات، وقد يطول الفرح ليالي وأياما قبيل حلول عاشوراء...

ونفرح لتعاقب الفصول، وتنوع الأشغال في الحقول، وتعدد المجنيات من المحصول...

ونفرح لازدياد عجل أو حمل أو مهر أو كتاكيت...

ونفرح آن المواسم الفرجوية حيث الاستمتاع بحلقات الفرجة الشعبية وطلقات البارود...وألعاب الماء والضادوس والسيارات الكهربائية المتناطحة بلا خسائر...

وتصحبنا الفرحة في الأسواق بتعدد أزمنتها وأمكنتها وطابعها الأصيل...
نتحين أقل الفرص من أجل اقتناص لحظات فرح، فكان الرداد يعلق على حرص الناس على الاحتفال كلما سنحت الفرصة بأن ذلك مردّه إلى تعاستهم، كان يقول لصديقه: أهل القبيلة يا عباس ليسوا سعداء بالمرة، والدليل أنهم يحتفلون كثيرا... فالسعداء لا حاجة لهم بالاحتفال...
عودة الأسواق بعد أن خلت من مرتاديها مدة زادت عن شهور ثلاثة، كانت عودة باهتة... حدثت خلال فترات الحجر وما بعدها أشياء كثيرة:
إخلاء ساحات السوق التي استغلها بعض الباعة والحرفيين بغير وجه حق معلوم، ومنع استغلالها حتى بعد عودة الحياة إلى الأسواق...
انهيار أطراف من جدران الأسواق بفعل الثقوب التي يحدثها مجهولون ابتغاء تجنب أداء واجبات الصنك...
تزايد عدد الباعة المتجولين بسبب فقدان العديد من مناصب الشغل...
شعور جماعي بآثار الوباء على الرواج الاقتصادي، وعلى النشاط الاجتماعي أيضا. فقد تناقصت الأعراس والمناسبات، وتراجعت حركة الناس بفعل الجفاف ...
أمور شتى جعلت الناس يرددون: لم تعد أسواقنا كما كانت من قبل...
تلاحقت الكوارث حتى بدا وكأن سوق الصالحين قد تحولت إلى سوق الفاسدين والمفسدين...
الحياة في دماغك يا عباس سوق كبرى، تنعقد يوما أو بعض يوم ثم تنفض على حين غرة... لكنه ورغم تجاوز سن السبعين، لا تزال تنعقد في ذهنه

أفكار ووساوس توحي له بضرورة الزواج بامرأة قريبة منه في السن، وذلك حتى تعينه على استكمال المشوار بعد وفاة زوجته. تزوجت ابنته الكبرى وماتت منتحرة، وتزوجت الوسطى منذ عامين، ولم يتبق معه سوى ابنته الصغرى التي تؤنس زوجة ابنه في غيبة هذا الأخير. كلف صديقه الرداد أن يعرف ما يدور بذهن ابنه وابنته بخصوص الموضوع، حتى إذا لم يجد لديهما أي اعتراض نوى ذلك وتوكل على الله ... أسر إلى خلصائه من رجال القبيلة أن يجمعوا مالا، يشترون به بقرة ثم يوزعونها فيما بينهم. وافق أغلب أهل القبيلة ، اشتروا بقرة تسر الناظرين، وحددوا موعدا لذبحها وتوزيعها... يعلم الأهالي في البادية أن هذه الطريقة التي يسمونها "الكرعة" وأحسبها مرادفة للقرعة في اللغة الفصحى، تمكنهم من اقتناء كمية لابأس بها من اللحم بثمن أقل بكثير من ثمن الأسواق. وهي أيضا مناسبة لشبه احتفال، يتسابق فيه العارفون بأمور الذبح والسلخ من شبان البلدة ورجالها إلى المساعدة والمساهمة، وتبرز بعد ذلك قيم نبيلة، تتجلى في تخصيص أسهم مجانية للأرامل والعجزة والعاجزين عن العمل من رجال البلدة ... جلس عباس في صدر الخيمة الكبرى حيث تتم القسمة، وبجانبه كبار أهل القبيلة يتقدمهم فقيه المسجد... بعد تحديد عدد المستفيدين، صار الفقيه ينادي بالأسماء دون أن ينظر إلى الأسهم، بينما يوجههم عباس إلى نصيبهم من اللحم... ثم وقف في نهاية الأمر وقال للجماعة: يا أهل قبيلتي، تعلمون أنني فقدت زوجتي، وأنني أصبحت أكثر من ذي قبل في حاجة إلى المساعدة والعناية، فهلا أشرتم علي بمن أسترها وتسترني؟ نظروا إلى بعضهم البعض مندهشين، إذ لم يسبق لهم أن عهدوا رجلا يقدم

على طلب الزواج بتلك الطريقة. تدارك العربي السقاء الأمر فقال:
ما قلتي عيب... لي بانت ليك تناسبك هاحنا موجودين، وجد غا المَاكلة...
ضحكوا جميعا ثم انصرفوا على أمل لمة قادمة ببيت عباس.
في الطريق إلى المنزل، همس الرداد في أذن عباس قائلا: ما رأيك في أرملة علال الهبطي؟ لقد تجاوزت الأربعين، لكنها امرأة صبورة، تحضن ولديها بكل اتزان ووقار. ألا تكلمها في الأمر يا عباس؟
عباس: من يكلمها؟ أنا؟ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هل تراني أجرؤ على فعل كهذا؟
الرداد: لا عليك صديقي، غدا أرسل زوجتي كي تخبرها بالأمر...
عباس: جازاك الله خيرا، لن أنسى صنيعك أبدا
نسي الأهالي في طريق عودتهم كلما يتعلق ب"الكرعة" ، وفصلوا كلام عباس وتصرفه تفصيلا... منهم من اعتبر أنه أصيب بخرف الشيخوخة، ومنهم من اعتبر أنه صدم بسبب موت زوجته، ومنهم من عد الأمر جَسّاً لنبض الأهالي، وغمزا من قناة بعض الأرامل... ومنهم من استنكر ذلك في زمن ما بعد الوباء، وزمن الجفاف والجفاء، وزمن انشغال الناس في البحث عن المؤونة والماء...
عاد عباس إلى بيته، تمدد على ظهره، وأخذ يحدث نفسه في صمت غريب: يخفت بريق الأشياء كلما تقدم بك طرف العمر يا عباس، يتراجع منسوب الرضا والسعادة، وتتناقص الأحلام والآمال... فكيف تجرأت على أن تقول

ما قلت أمام الجماعة ؟ كيف ؟ كيف ؟

كنت تجلس على قارعة الطريق في مقاهي المدينة كلما زرتها، تتابع تهافت المارة في كل اتجاه، وحملقة العيون بكل انتباه لعابرات مصبوغات بطلاءات العطار، وتستعيد في جلستك الغريبة شريط أسواق البوادي في تعاقبها وتواترها، وشريط الأحداث في تقادمها وتجددها، فتخلطها خلطا يليق بسوق الدنيا بأسرها... العالم في دماغك يا عباس كتلة تدافع وترافع بين من يدعي بلوغ الرقي والازدهار، ومن يفند ذلك بحجة الخراب والدمار المتكرر... وتدرك بفطرتك السليمة يا عباس أن التطاول في البنيان قد حجب عن العقول الأكوان، وصفاء الفكر والأبدان: غلبت على الناس شقوتهم في عز الجفاف والجفاء، عادوا إلى الأسواق بأذهان شاردة، وأياد باردة، إذ تغيرت ملامح الساحات بعد الحجر الصحي الذي كان فرصة لإخلاء بعض الأماكن ممن ألفوها بالحيازة المغبونة والترامي، في ظل الفوضى والتعامي...تأفف التجار والحرفيون من تلك الفراغات التي بدت موحشة، فقد ألفوا أسواقا تعج بالسلع والبضائع...

بات الأهالي يجتمعون في الأماسي بالمدشر، يتحدثون بحسرة عن الوجه الجديد للسوق، عن أشياء غريبة تحدث هنا وهناك، عن الريح العاتية التي تنبعث بين الحين والحين على شكل زوابع تملأ أتربتها الآفاق... عن أفران الإسفنج والشواء التي تهشمت بفعل فاعلين، عن عدم رغبة أصحابها في ترميمها بفعل الكساد، عن تعرض أبقار وثيران للكسور بفعل الإسفلت المنثور بغير دراسة أو تشاور...عن حرائق شبت في بعض الخيام، عن تزايد أعداد المتسولين

والنشالين واللصوص بسبب الركود الاقتصادي، وفقدان العديد من الناس لمناصبهم في الشغل...والمصيبة العظمى التي أنستهم كل ذلك، والتي باتت تؤرق الأهالي جميعا هي تلك الحشرة الغريبة التي باتت تحلق في أجواء السوق. حشرة غريبة شوشت الأذهان، سوداء في حجم نحلة وليست بنحلة، ذات طنين لا يشبه الطنين، تحلق فوق الرؤوس بالأسواق، تكدر صفو المجالس، وتنغص على الباعة والمشترين كل حركة أو سكون... توالت شكايات الناس، فعمدت السلطات إلى رش أقوى المبيدات دون جدوى. كانت الحشرة الغريبة تختفي من السوق بمجرد فراغه، لكن سرعان ما تعود بانعقاده من جديد. انشغل الناس عن الكمامات الواقية بمراوح بلاستيكية وأخرى من الدوم يلوحون بها طول الوقت فوق رؤوسهم لطرد الحشرة الغريبة، ويحاولون قتلها، فيفلحون مرة ويخيبون مرات، بل كلما قتلوا واحدة ظهرت أختها...ضاق الناس ذرعا بهذه الحشرة التي نغصت حياتهم، وحولتها إلى جحيم لا يطاق، فبات الهادئ منهم أسرع غضبا...

لاحظ عباس وهو يمشي في السوق على وقع الطنين أطفالا يمرحون غير آبهين بموضوع الحشرة الغريبة الذي شغل الناس، كان الأطفال يتجمهرون حول كلب مريض، يضربونه بحجارة صغيرة، ويجرونه من ذيله أو يهشون عليه بعصا، والكلب الضعيف يرسل صوت أنين محاولا إخافة الفتيان بالتكشير عن أنيابه، لكنهم كانوا غير مبالين بتهديداته... نادى عباس على الأطفال، أخرج من جيبه صرة بها "فانيد المكانة" ... وزعها عليهم وأخذ يحكي لهم قصة كلب المدينة:

أتعرفون قصة ريكس ؟
لا يا عمي
اسمعوا إذن، كان في المدينة كلب يدعى ريكس، وكلاب المدينة تعيش في بيوت أصحابها مدللة، تأكل أكلا معينا في توقيت محدد، ولا يسمح لها بالأكل من القمامة أو غيرها. تزور الطبيب البيطري بشكل منتظم، ومنها من يقوم بقضاء أغراض صاحبته. كانت كلاب المدينة تجتمع فيما بينها من أجل اللهو واللعب وتبادل وجهات النظر في أمورها الخاصة. سمعت تلك الكلاب عن الحياة الصعبة التي تعيشها كلاب البادية، وكلاب الأسواق على الخصوص، فقرروا أن يبعثوا أحدهم للتأكد من ذلك. رفض الجميع الذهاب، فاقترح عليهم أحدهم أن يجروا قرعة، فكانت من سهم ريكس... زودوه بما يلزم، ثم خرج باكرا يقصد أحد الأسواق في البادية. عند مدخل السوق، تحلق حوله عشرات الكلاب، يشمونه من رأسه إلى مؤخرته، مستغربين أن يحل بين ظهرانيهم كلب بتلك الأناقة. ولما فرغوا من ملاطفته، انطلقوا صوب "الكرنة" فيما قرر ريكس أن يقوم بجولة داخل السوق. وسط الزحام كان البدويون يهيمون مشوشي الأذهان بفعل طنين الحشرة الغريبة، يركلون ويرفسون كل ما يمر أمامهم من كلاب وقطط. تعرض ريكس لأبشع ركل ورفس في حياته كلها، وكلما رآه الأطفال بحثوا عن حجر ورموه به حتى يفر هاربا... قضى في السوق أبشع ساعة في حياته... لم يستطع إكمال جولته، بحث عن مخرج ثم عاد لاهثا صوب المدينة. دخلها على حين غرة، وهو يمني النفس بعدم ملاقاة رفاقه قبل أن يستحم ويمشط شعره، لكن من سوء حظه أنهم كانوا ينتظرونه

عند مدخل الحديقة المجاورة لبيته. استغربوا أن يشاهدوه في تلك الحال، وانهالت عليه عبارات التهكم والسخرية: " ارجع من حيث أتيت أيها المجحوم" "حدثنا عما فعلت بك كلاب البادية أيها المنحوس"...

لم يتكلم ريكس، بل قصد منزل صاحبه، وبعد أن نظف جسمه، خرج إليهم قائلا: لم أعرف قط أنني كلب إلا بعد أن زرت السوق... ضحكت الكلاب ساخرة، وضحك الأطفال من حكاية عباس... وبذلك انصرفوا وتركوا الكلب المريض بأمان...

حكايات عباس مع الكلاب لا تنتهي، منذ صغره تعرض لكثير من أذاها، كانت مصدر خوفه وهو يمر بين الخيام... كم مرة هاجمه كلب شرس، فأسلم رجليه للريح، أو اتكأ لالتقاط حجر يلقم به هيجان الكلب، أو صاح صيحة يطلب النجدة من الآخر... وكم عانى حين عضه كلب مجهول، ورجّح الناس أن يكون كلبا مسعورا، فاضطر إلى اتباع نصائح الطبيب بالسفر إلى المدينة من أجل أخذ اللقاح الوقائي... وهاهو الآن يشرف على الشيخوخة، ولا تزال الكلاب تثير حفيظته. يذكر لصديقه الرداد تكاثر أعدادها في المدينة المحاذية للسوق، وعدم قدرة السلطات على دفع أفواجها الهائمة، مخافة التعرض لانتقادات حماة الحيوانات من جمعيات ومنظمات... وكأن الكلاب فهمت ذلك، فباتت تتجول بكل حرية وبكل أريحية داخل شوارع المدينة الصغيرة...تجذبها روائح الدم في المجازر البلدية، وروائح الزيت في مقالي الإسفنج بالسوق الأسبوعية... ويذكر عباس للرداد قصة "المخزني" مع كلاب الأسواق، إذ كان وقتئذ يتكلف بإبادة الكلاب الوافدة على السوق بواسطة

بندقية. لم تكن الكلاب الوافدة كلها كلابا ضالة تائهة، بل كان أغلبها يتبع عربات أصحابها القادمين إلى السوق، كانت في حقيقة الأمر كلابا أليفة تحظى باهتمام أصحابها، فهي تقوم بمهام الحراسة ليلا ونهارا... ورغم محاولات أصحابها منعها من مرافقتهم إلى مكان حتفها، إلا أنها كانت تصر على ذلك، فتتخذ طريقا محاذيا وهي تراقب العربة من بعيد... كان البدويون ساعتها يعودون إلى بيوتهم بعد الظهيرة، يتفقدون الكلاب فلا يجدون لها أثرا، فيعلمون بعد حين أنها قتلت بسلاح "المخزني" المأمور من قبل السلطات التي كانت بذلك ترمي إلى حماية الناس من بطش الكلاب الضالة. ويذكر عباس دعوات أهل القبيلة على من قتل كلابهم الأليفة، بل إن منهم من كان يبكي كلبه بكاء حارا... ويصب جام غضبه على صاحب البندقية... وما هي إلا أعوام حتى شاع في القبيلة خبر القبض على عصابة سارقي البهائم "الفراقشية" ، وضمنها كان المخزني المذكور. فقد كان يضرب عصفورين بحجر واحد، ينفد أوامر السلطات في محاربة الكلاب الضالة، وينفد أوامر الفراقشية في قتل كلاب الحراسة كي يفسح لهم المجال للسطو على البهائم. ولم يتردد الأهالي في اعتبار أن ما حصل للمخزني كان بسبب قتله للكلاب الأليفة...

دلف أخو عباس إلى المنزل، سمع آخرالكلمات الصادرة عن فم أخيه. سلم ثم قال: ألم تتعب من ذلك اللغط؟ منذ وعيت وأنت تتحدث عن الكلاب، وها أنت قد نيّفت على الثمانين، ولا زلت تردد نفس حكايات الكلاب. ألا ترى

أن الناس تعيش اضطرابا مخيفا بسبب الحشرة الغريبة؟ انظر حواليك، فإن الطنين لم يستثن أحدا من الكبار والشبان، حتى حديثات الزواج من بنات القبيلة.

قال الرداد: لا تكلمنا أيها الفقيه عن الشابات والشبان، لقد أفسدت عقولهم الهواتف... ألم تسمع الفيروس الذي انتشر بين نسوة الدوار مؤخرا؟ لا نعلم كيف نشرت بينهن، تلك العائدة توا من بلاد الأندلس، فكرة السفر للعمل بضيعات كبار الفلاحين الإسبان... لقد أصبح الموضوع حديث الرجال والنساء على السواء. لقد استطاعت أن تقنع بذلك أغلب النساء، وحتى بعض الرجال العاجزين عن تدبير قوتهم اليومي... إن بريق المجوهرات التي كانت ترتديها قد أخذ بلب النساء، المتزوجات قبل العازبات، وأذكى في نفوسهن الغيرة ولهيب المغامرة... تمتعضن من ضنك العيش وضيقه بفعل الجفاف، فدخلن من أجل ذلك في مفاوضات غريبة من أجل إجبار أزواجهن على الموافقة. كان بعض الأزواج الرافضين يطرحون أسئلة من قبيل:

ولماذا لا يقبل هؤلاء إلا النساء؟ أليس الرجال أقدر على العمل وأجرأ على المغامرة؟ فتجيبه إحداهن بأن النساء أقل افتعالا للمشاكل والقلاقل، وأقل طلبا للزيادة في الأجور من الرجال... ربما...

ربما أصبح رجال القبيلة بفعل طنين الحشرة الغريبة أقل قدرة على الجدال. كانوا كمن يتفرج على تشتت أسرته أمام ناظريه وضياع صبيته وتفاقم أوضاعه المعيشية... كانوا ينظرون إلى الأمر من زاوية أخرى: إن هؤلاء النسوة يتطلعن إلى المال وإلى الفضاء الرحب هربا من عيون الرقابة الأسرية، وبحثا

عن فرص الاحتفال مع العاملات في الحقول المترامية (الأطراف)... طلق منهم من طلق، ووافق من وافق، غير أن الخسائر كانت كبيرة، غادر عدد لا يستهان به من نسوة الدوار، وتركن خلفهن رجالا تائهين وأطفالا كاليتامى وأمهات باكيات، على أمل العمل هناك والعودة إلى هنا ذات يوم...
نظر الرداد في عين صاحبه عباس نظرة استغراب، فقد أصبح عاجزا عن فهم ما يدور، فلطالما أنكر على زوجته زيارة بيت أهلها مرة كل شهر، فكيف يقبل هؤلاء أن تغادر زوجاتهم البيوت إلى أجل غير مسمى، وإلى بلد غير معروف لديهم...كان يطيل النظر في عين عباس ثم يقول مستنكرا:
-"على رقبتي ما بقاوا رجّالا فهاذ الدوار"
ثم يرد عباس: إنها لعنة الحشرة الغريبة بعد لعنة الفيروس الغريب ولا شك... قد تعود النساء يوما محمّلات بما يطاق وما لا يطاق، ويلبس الرجال كمامات الصمت بعد كمامات الوباء، وقد تندم المطلقات منهن بسبب تعنتهن وإصرارهن على الرحيل... وقد وقد... لكن لا أحد منهم جميعا سوف يقدر على سد الفراغ الذي تركته الأمهات في صدور الأبناء شهورا وسنوات...

بعد أن اطمأن عباس على ابنه نبيل وزوجته وهما يبنيان الخيمة بسوق "الثلاث" صبيحة ذلك اليوم الجميل، راح يلتمس جلسة قرب رائحة النعناع البلدي. صديقه أحمد النعانعي كان رجل نسمة ونغمة، يبيع أصنافا من النعناع، لا يفارقه البراد، يوزع كؤوس الشاي على جلسائه المقربين، ويوزع معها قفشاته المضحكة... كلما عاد في المساء من سوق، استراح قليلا ثم تأبط عوده، وقصد صديقه علال في حقل البطيخ الأحمر، هناك حيث بنى هذا

الأخير خيمة من أعمدة وأغصان، وغطاها بالقش وبقايا التبن. وهناك حيث يتبادلان مجج دخان السبسي، ثم يشرعان في العزف والغناء حتى وقت متأخر من الليل، وعادة ما كان يلتحق بهما بعض الأصدقاء المقربين . استمرا على هذه الحال سنوات قبل أن تتناقص لقاءاتهما بسبب جفاف مياه البئر التي كانت تسقي حقول البطيخ، إذ تراجع منسوب المياه الجوفية في أغلب المناطق...بات علال يمشي إلى السوق خاوي الوفاض، بعدما كان يُحَمّل حمارته الرعناء كثيرا من حزمات البصل والقزبر والمعدنوس، وفي بعض الأحيان صناديق من اللفت أو الجزر... أما البطيخ فكان يبيعه جملة ، ويتكفل المشترون بنقله إلى الأسواق... بات يمشي في الأسواق بين الصفوف وطنين الحشرة الغريبة يضرب في كل ركن من أركان دماغه وجسده النحيل... لم يعد يستشعر ذلك الهدوء وتلك النشوة المنعشة منذ أن حل الوباء وغزت الحشرة الغريبة الأسواق... يشتكي الجميع من توتر ورهاب وضيق، فبات الناس يخطفون المشتريات خطفا، ويغادرون الأسواق مسرعين على غير عادتهم، وهجر النعانعي عوده، و هجر علال خيمة البطيخ التي شهدت ليالي حمراء باذخة، تُحدث عنها بقايا القنن المكسورة المشتتة في جنباتها... ضجرت زوجة علال من عصبيته، وضجر الأولاد كذلك، فغضبت الزوجة وراحت إلى بيت أهلها، ولم تنفع تبريرات عباس وصديقه الرداد حين حاولا إصلاح الأمر بينهما، إذا كانا يجعلان من الحشرة الغريبة شماعة يعلقان عليها غضب علال... أصرت الزوجة على الطلاق، فكانت الخامسة بين نسوة الدوار... لم يكن هذا الرقم يسيرا بالنسبة للأهالي، فقد رأوا في انتشار أبغض الحلال طامة كبرى...

غياب زوجة عباس الأبدي، وتمرد ابنه نبيل عن الالتزام بالتجارة في الخيمة، والتزام البنت الصغرى بالدراسة في الكلية، دفع عباس للاستنجاد بصديقه الرداد ، وطلب منه مفاتحة "ميمونة"، أرملة علال الهبطي، في موضوع الزواج، مع تذكيرها ببعض الشروط، فإن وضعه كرجل مسن، ووضعها كأرملة ذات بنيتين صغيرتين، يفرض عليهما أن يكون الزواج بكتابة العقد والسلام... ازداد طنين الحشرة الغريبة في أذن نبيل ونبيلة، خصوصا بعد مجيء زوجة أبيه الجديدة وابنتيها. اضطر نبيل إلى السفر بحثا عن عمل في أوراش البناء بالمدينة، اكترى بيتا هناك، وعاد ليصحب زوجته رغم رفض وحسرة والده... وهكذا لم يجد عباس بدا من مغالبة أوجاعه وتعبه، والرجوع إلى الخيمة بالأسواق، وهذه المرة بمعية زوجته "ميمونة" التي صارت ترافقه وابنتاها الصغيرتان...لكنه اكتفى بأسواق ثلاثة، تلك التي كانت ذات مردود جيد...

تغير كل شيء، يجلس عباس تحت الشجرة المحاذية لمنزله، يراقب ميمونة المتحركة يمينا وشمالا، تكنس وتحلب وتغسل وتنظف...، ويراقب ابنتيها تلعبان الحجلة في زهو وسرور، ويتأمل المنزل وما طرأ عليه من تحولات كبرى، ماتت الزوجة الأولى وماتت البنت الكبرى وتفرق الأولاد، وحل محلهم آخرون تماما، لم يبق من اللمة القديمة إلا هو، فسبحان مبدل الأحوال...

كلما خلا بميمونة، أو سارا معا باتجاه الأسواق، كان يكرر على مسمعها "حديث الخيمة" قائلا:

تلك الخيمة يا ميمونة أمانة، لم تكن قط مجرد مكان للبيع والشراء كما يراها كثيرون، إنها حمل كبير على كتفي، حاولت جاهدا أن أزرع حبها في ولدي، لكنني لم أفلح، لم أفلح يا ميمونة (ثم يجهش بالبكاء)... فتواسيه ميمونة قائلة: أطال الله في عمرك، ها نحن معك، نساعدك في كل شيء، وربما يعود ابنك يوما ما، فالعيش في المدينة صعب للغاية يا عباس... سترى، سوف يعود يوما... يمسح عباس دموعه بطرف كمه ثم يردف: الخيمة أمانة، إنها ليست مصدر رزق وحسب، إنها سبب من أسباب السعي الدؤوب، والسعي في طلب الرزق عبادة... إنها خيط يربط السلف بالخلف، والخلف بالسلف، فهي ليست وجاء من حر الصيف وقر الشتاء، بل إنها وجاء من سعف الأيام وعبء الأسقام... ماذا سوف أقول لوالدي؟ ماذا سوف أقول لجدي؟ الخيمة يا ميمونة جزء من كياني...

وماذا سوف تقول لقرائك أيها الكاتب التائه؟

لا عليك راوي الرواة، سوف أقول شيئا، والعهدة على المرآة:

حين تحدق في المرآة، يبدو لك المشي إلى الوراء أسهل بكثير، لولا أنك ترى أشياء كثيرة مررت بها يوما دون أن تنتبه إليها، بل لم تعلم بوجودها أصلا... المشي إلى الأمام أصعب بكثير، ربما لأنك تسير نحو المجهول. وحين تتخطى الأعوام بقدميك وتترك خلفك المجاهيل، فاعلم أنك لا تتقن فن السؤال...

أمثال عباس لم تكن لديهم الجرأة لطرح الأسئلة، بل لم تتح لهم فرص طرح السؤال، بسبب غطرسة وجبروت الكبار... عباس نفسه كان يلتمس

لأبيه وجده الأعذار في طريقتهم الفجة في التعامل معه ومع والدته وإخوته، لقد عاشوا زمن الحماية، وزمن الأوامر التي لا تصد ولا ترد... فكم مرة بات أبوه يحرس شتلة "أوكاليبتوس" بجانب الطريق المعبدة، لا يغفل عنها طرفة عين، والويل له كل الويل إن تعرضت للسرقة أو الإتلاف، يتعهدها بالسقي والرعاية أكثر مما يتعهد أهله...

يزعم الرداد أن المعمرين كانوا يرون في الأشجار على هوامش الطرق المعبدة فوائد كثيرة، فهي تبعث الظل نهارا، وتعكس أضواء السيارات ليلا، وتشكل مصدر ثروة خشبية... ولهم فيها مآرب أخرى... أما الآن فقد أصبحت شماعة تعلق عليها بعض حوادث السير، ومجمع العصافير المزعجة التي تأكل المحاصيل، وجذورها تسبب تشقق الزفت... فصار اقتلاعها من جذورها أمرا لا محيد عنه ولا مفر منه...

جيلنا يا صديقي عباس أتعس الأجيال...جيلنا جيل عبور صبور، درسنا الشوك بأرجل حافيات، عملنا في الحقول حتى تشققت أيادينا، قاومنا الجوع والعطش والأمراض والحر والقر، خبرنا من أمور الحياة شيئا وغابت عنا أشياء... تعلمنا أن نعيش كما أتيح لأسلافنا العتاة القساة...فلما خلفنا أولادنا، عز علينا أن يحرموا مما حرمنا منه، وأن يعانوا ما عانيناه صغارا وكبارا، فحرصنا على توفير ما استطعنا لهم، فنشأوا على ذلك في دلال وتراخي، غير عابئين بمتاعبنا اليومية، وغير قادرين على تحمل الكثير أو القليل من الأعباء.

ينتظرون أن تستفيق الأم باكرا، ولا ينهضون إلا بعد أن تستوي صينية الفطور... ينتظرون أن يعود الأب من العمل كي يقضي كل ما يحتاجونه من

وثائق وغيرها... ولما كبروا، التصقوا التصاقا بهواتفهم الذكية، فبتنا نشتكي عزلتهم وعدم اكتراثهم وضعف إحساسهم بنا... تبكي زوجتي حين تتعبها أشغال البيت ولا تجد من بناتها تلك المساعدة المطلوبة، وأتحسر حين أحتاج إلى من يريحني من عناء اليومي، فكنا نصمت على مضض، نتبادل اللوم على طريقة تربيتهم، نتخاصم ونتصالح، ويستمر الوضع على ما هو عليه حتى إشعار آخر...
لعن الله الهواتف، تلك السكاكين التي تساعد على تقشير الفواكه تارة، وتزهق الأرواح تارة أخرى... ألا ترى يا عباس كيف استعملها كثير من المتطفلين على الإعلام، فباتوا يقطعون الساحات في الأسواق، يسألون عن أثمنة الخرفان والماعز والدجاج وغيرها، عن عدد الفضائح الأخلاقية، عن عدد الكوارث والحوادث، عن أثمنة المزروعات والمحروقات والمسروقات... يوزعون القفشات والخدع والتفاهات...؟؟؟
عباس: ايه يا صاحبي، كنا من قبل نشتاق إلى سماع صوت مذيع أو مذيعة عبر الأثير، نتابع بالأبيض والأسود برامج التلفزة في إرسالها القصير الذي لا يتعدى خمس ساعات في اليوم... اليوم يا صاحبي أصبح كل يغني على بلواه في قناة...أين طعم ذلك اليوم؟ بل أين طعم الحلقات الفرجوية المباشرة في أسواقنا؟ لا تذكرني أرجوك، لنغير الموضوع...
قال الرداد: تصبح على خير ياصديقي... نلتقي غدا في سوق اولاد عمران.
رد عباس: لم لا ترافقني على متن العربة؟
الرداد: لقد اتفقت مع العربي "مول البيكوب" أن يأخذني معه
عباس: على بركة الله

في مدخل السوق صبيحة الغد، لمح عباس صديقه في رحبة الدواجن، يمسك ديكين أحمرين، وينتظر قدوم المشتري. أومأ إليه أن يتبعه إلى الخيمة فور الانتهاء من عمله... نصبت ميمونة الخيمة بمساعدة جار عباس في سوق الأربعاء، فيما اقتعد عباس كرسيا وهو يئن من ألم مفاصله. كانت سحنات وجهه يدل على حسرة غائرة، فقد أصبح يحس وكأن ابنه قد خان وصيته، ولم يحفظ العهد في حياته مع أول كبوة، فكيف سيحفظه بعد موته إذن؟ بدا عباس شبه يائس، قلقا على مستقبل الخيمة المبروكة...

ازدادت معارف ميمونة من النساء بالأسواق، فكانت تستقبلهن بوجه بشوش، وتقدم لهن المساعدة الممكنة، كالاحتفاظ بمقتنياتهن في أركان الخيمة حتى يفرغن من قضاء أغراضهن، أو الإجابة على بعض استفساراتهن المتنوعة، فقد كانت امرأة حاذقة نبيهة. بادرتها إحداهن قائلة:

فلوس "القُرعة" ما فيها بركة، كيف تشديهم يمشيوا وتبقاي غارقة في الكريدي...مصيبة صافي.

ردت ميمونة: (الفلوس ما بقات فيها بركة...)، أتعلمين أن نساء دوار "الخربة" قد استدعين إلى مخفر الدرك بالمدينة؟

-ولماذا؟

-شاركت معهن في "القرعة" إحدى النساء الغريبات عن الدوار بعد أن نالت ثقتهن، تسلمت مثلهن مبلغا من المال، ثم سافرت دون سابق إخبار للعمل في ضيعات الأندلس، وتركت الأخريات يتخبطن في مشكل عدم أداء عنصر من العناصر، ذلك أن الاتفاق مع الجهة المقرضة يلزم الأخريات بالأداء في حال

تخلف إحداهن عن ذلك...
-مشكلة والله... لكنها ستؤدي المبلغ كاملا حين تعود، أليس كذلك؟
-إذا عادت.
وصل الرداد خيمة عباس، كان يحرك يديه حركة امتعاض واستنكار، ووجهه مكفهر من شدة الغيظ. الحشرة الغريبة لا تفارق محيط رأسه الأصلع. ظن عباس أنها سبب غضب صديقه، خاطبه بسخرية:
-لو اشتريت خوذة واقية لأراحتك من الصلع والطنين... سيكون ثمن خوذتك باهضا، فرأسك أكبر من يقطينة اولاد بوعنان...
تضحك ميمونة وهي تغطي فمها بشالها ويضحك كل من في الخيمة عدا الرداد.
-الرداد: ضحكوا غا نتوما، أنا هجّروه ليا
- مالك اصاحبي اش كاين؟
- كاين الله. بزاف اصاحبي، كل سوق زيادة في الصنك، هادشي خاصوا وقفة قدام العمالة...
- وا الرداد، ادخل سوق راسك ما كاينش معامن، بايع غا فروج ومصدعنا...
وتدخل أحد الحاضرين ليذكّر بما حصل له، فقد اتفق أهل الدوار على الذهاب في مسيرة صوب مقر المجلس الجماعي للمطالبة بإصلاح قنطرة تضررت بفعل السيول، كانوا أكثر من خمسين رجلا، وحين جاء وقت الجد، لم يجد الرجل حوله أمام المقر إلا أربعة أنفار، فقفلوا عائدين. علم بذلك شيخ القبيلة، فتم استدعاؤهم للتحقيق معهم، بل وجهت لهم تهمة التحريض على الفوضى، وأجبروا على توقيع التزام بعدم العود...

الرداد: ها هو ساكت.
ناولته ميمونة كأس شاي، أمسكه ورشف منه رشفتين متتاليتين، وضعت أمامه صحن الاسفنج، لكنه امتنع قائلا: "والله ما عندي منين يدوز..."
-عباس: أودي غا كول دابا يفرج الله...
تململ في مكانه ثم بدأ يحكي وعيناه تدوران في رأسه مثل فنار:
قد تكبر السوق أو تصغر، يزيد مرتادوها أو ينقصون، تتزايد أهميتها أو تقل، لكنها تبقى في نهاية الأمر سوقا، تجمع بينها سمة الانعقاد الأسبوعي، وسمة التجارة في كل شيء، وسمة الجمع بين السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني ... وكذلك سمة التواصل سلبا أو إيجابا... وقد تباينت صوره وأشكاله خصوصا مع انتشار الهواتف المحمولة. ولك يا عباس أن تضيف سمة الحشرة الغريبة التي ذاع صيتها في كل الأسواق، وحذرت منها الأبواق، وشكل طنينها مصدر إزعاج وارتباك... على مقربة من عيد الأضحى، اشتعلت نار أثمنة الأكباش، فوصلت أرقاما قياسية لم تشهد لها الأسواق مثيلا فيما مضى، فكانت الجموع تقطع ساحة النعاج ذهابا وجيئة، تسأل عن أثمنة الخرفان والأكباش فتكتوي بحرارة الغلاء... تزايدت أعداد الحشرة الغريبة، وزادها غبار الرحبة خنقا وضيقا، فكان البعض ينسل هاربا صوب الخلاء، فتجد الناس زرافات مستنكرة، ووحدانا يكلمون أنفسهم... هذه الأسواق ياعباس لم يعد لها طعم ولا لون ولا رائحة...
عباس: كنت أعرف أنهم سوف يعلمونك السياسة يا رداد، كم مرة نهيتك عن مصاحبة أولئك المنقطعين عن الدراسة من أبناء الكلية...

(شي نهار تكحشك ادجيب)
الرداد: الجميع يتحدث عن الغلاء ويستنكره، من الحلقة إلى الزنقة، من الجالس إلى الواقف، من المتحدث إلى الهاتف...
عباس : الحشرة الغريبة يا عباس لم تعد تقتصر على رحبة دون أخرى، كل المتسوقين يشتكون منها، ولعلي سمعت أن الناس تنوي أن تقوم بمسيرة احتجاجية للمطالبة بإيجاد حل يخلصهم من الطنين ويعيد إلى النفوس بهجتها المفقودة.
الرداد: أجل ، هذا ما سمعته، طنين الحشرة الغريبة لم يعد أمرا مطاقا...
شمس الظهيرة حارقة فوق الرؤوس، وتحتها سم الطنين يسري من الآذان إلى العروق، والناس في عجلة من أمرها، فجأة شد العيون ما يشبه موكبا صغيرا، قائد المنطقة بالزي العسكري يتوسط بضعة عساكر، وبرفقتهم يسير شيخ القبيلة ومقدم الدوار، القائد يمشي الهوينى، كانت ابتسامته تبدو مفتعلة، يتحدث إلى الباعة والمتسوقين، يحمل في يده ملفا يهش به بين الفينة والأخرى على شيء ما، لم يلحظ الناس في سماء رأسه أثرا للحشرة الغريبة، لكنه كان يهش على شيء ما... وحين التف حوله جمع من الناس، قال بصوت مكلوم: "قهرتنا هاذ الحشرة"، فضج الناس بكلام لم يتبين منه إلا غضبهم وسخطهم على هذه الآفة المقيتة... ثم استطرد مهدئا من روعهم: سنعمل على محاربتها في القريب العاجل، لقد بعثنا بعينة منها إلى المختبر، وقريبا بحول الله سنحصل على مبيد مناسب، يخلصنا جميعا من شرها. علا صراخ المتسوقين، فيما كان العساكر يحيطون بالقائد ويبعدونه عن مكان الجلبة... تقدم القائد مسافة وسط

السوق، وكرر نفس العبارات... وبعد أن أحس بانتشار المراد بين الناس، أقفل عائدا إلى مكتبه. شاع بين المتسوقين أن القائد يريد بذلك إفشال عزمهم على المشاركة في المظاهرة المعلومة، فكانوا يحفزون بعضهم البعض على ضرورة التظاهر، فالحشرة الغريبة كدرت صفو حياتهم، وسحبت من تحت أرجلهم بساط التحرك بكل حرية واطمئنان. صاح أحد المتسوقين غاضبا:
"ما هنا حالة، ما جينا فين نتنفسوا من كورونا حتى جاتنا الحشرة"
الناس في الأسواق لا يثبتون على حال، تتغير أمزجتهم بتغير الساحات والرحبات، يداري الرابحون فرحتهم مثلما يداري الخاسرون حسرتهم، ويمشي مكبا على وجهه من لا حظ له في ربح أو خسارة. هم لا يثبتون على حال في أسواق عششت فيها طيور القيل والقال، وكثرة السؤال، وبلية الهاتف الجوال... كيف يثبتون على حال ، والضرر جسيم، والطنين قد عكر صفو الكريم واللئيم... وجدوا أنفسهم في وضع المضطر إلى الاحتجاج.

فقيه المسيد كان له رأي آخر، إذ كان يعتبر تعاقب المصائب عقابا إلهيا للمفسدين من الصباغين والمطففين في الكيل والميزان واللصوص والجانحين والمتسولين الكذابين وغيرهم ... عاد شيخ القبيلة بعد أن شيّع القائد إلى مكتبه ينذر الناس ويحذرهم من مغبة التظاهر بدون ترخيص. لكن الرداد النزق كان يقول متهكما: " واش هاذ الحشرة لي مصدعانا واخذة ترخيص؟"
يضحك الحاضرون خلسة، بينما يجحد الشيخ الرداد بنظرة توعّد ثم ينصرف دون كلام...

صبيحة الغد، كان الناس يتجهون فرادى وجماعات صوب مقر المجلس الجماعي للمطالبة بضرورة تدخل السلطات المحلية لحماية المتسوقين من الحشرة الغريبة.
تجمهر الناس، هتفوا بشعارات عشوائية:
"هذا عار هذا عار.... راه السوق في خطر"
"الحشرة يا رئيس..... عدوّة المجالس"
بدت الساحة مثل سوق بلا سلع، خرج عليهم السيد الرئيس يحمل في يده مروحة ورقية، يهش بها على حشرة غير مرئية، طلب منهم الهدوء، ثم قال:
-أيها الناس، من خلق هذه الحشرة؟
- الله
-فهل نعترض على خلق الله، إنها قضاء وقدر، نعاني منه جميعا، كل على قدر طاقته وتحمله. فلنصبر حتى يرفع الله مقته وغضبه عنا.
-يا سيادة الرئيس، لا اعتراض على أمر الله، لكن عليكم أن تجدوا حلا يخلصنا من هذه الآفة التي نغّصت عيشتنا، وقللت سعينا ثم أرزاقنا...
-أعدكم أنني سأبلغ الأمر لأصحاب القرار، وقد أُخبرت هذا الصباح أنهم سيجدون مبيدا لهذه الحشرة اللعينة في القريب العاجل، كما وجد آباؤنا وأجدادنا مبيدات للجراد الذي هجم عليهم قبلنا، فقضى على محاصيلهم، وكبدهم خسائر فادحة. اصبروا، فإن لكل زمن جراده، فنحن نعيش ركودا اقتصاديا غير مسبوق بسبب الجفاف ثم الوباء ثم الحرب الروسية الأوكرانية... أيها الأعزاء عودوا إلى بيوتكم... ويسرني بالمناسبة أن أرحب بكم جميعا في الأسبوع القادم في المهرجان الذي ستنظمه الجماعة بحضور نجوم الأغنية

الشعبية، والسلام عليكم ورحمة الله...
قفز الناس وصفقوا ثم تفرقوا على أمل اللقاء في المهرجان... وعادوا إلى بيوتهم وطنين الحشرة يقض مسامعهم ومضاجعهم...
بعض الناس لديهم حساسية خاصة تجاه "الشعبي"، الرداد مثلا كان يحس بقشعريرة تسري في أنحاء جسده النحيل كلما سمع صوت الكمان يعزف ألحانا شعبية، بل كان يزعم أن شعر رأسه يتمدد بعد سكون ... في مواسم التبوريدة وتحديدا في مضمار التبوريدة كان ينتشي لسماع "خربوشة" ويدندن معها في نشوة غامرة:

وخايتي عليك آ ليام... ايام القهرة والظلام
وفينك آ عويسى... فين الشان والمرشان
شحال غيرتي من عباد...
شحال صفيتي من اسياد
بلا شفقة بلا تخمام...
حركتي الغلة وديتي الكسيبة...
صكتي النسا كيف النعام
يتمتي الصبيان بالعرام
وايلي آ يلي...
لم يكن الرداد يعرف قصة خربوشة مع القائد عيسى بن عمر، لكنه كان يطرب لسماع الأغنية مثلما يطرب لسماع "حاجتي في كريني" وغيرها من الغناء القديم

المتجدد... يدرك معارفه ولعه منذ صباه بالغناء الشعبي، فقد نشأ يترصد الأعراس في القبائل، يرتادها بلا دعوات من أصحابها، حتى أصبح معروفا في القبائل المجاورة، ينعته صديقه عباس بالطفيلي...

في الأسواق الصغيرة كسوق اولاد عمران، يعرف الأهالي المتسوقين بعضهم البعض، وكل زائر غريب يعد بالنسبة إليهم حدثا بارزا ، يتابعونه بأعينهم وألسنتهم، فتنهال التعاليق والوشوشات فيما بينهم... سيارة اسعيد ولد المعيطي الحمراء الطويلة، صارت هذا الصباح محط أنظارهم ومثار نقاشاتهم الفارغة... الرجل غريب عن السوق، لكنه معروف لدى عباس والرداد، فهو ينحدر من مدشرهما. يعرفانه حق المعرفة. ويبدو أنه عرّج على سوق الأربعاء من أجل بيع بعض السلع قبل أن يحط الرحال ببيت والده. لقد غاب عن البلدة سنوات، إذ حالت الظروف الصحية بينه وبين المجيء بسبب الوباء. انتبه الرداد إلى ثقل حمولة سيارة اسعيد، وهمس في أذن عباس أن يطلب منه تمكينهما من هدية مبكرة. لكن عباس رفض بشدة، بل تحاشى أن يسلم عليه خشية إحراجه، بل أفهم الرداد أن الحمولة يلزمها يوم أو يومان كي يتم إفراغها وفتح خزائنها قبل الشروع في توزيع الهدايا. يئس الرداد من صديقه عباس، فعلق حانقا:

انتظروا أن يطوّح إليكم بمرميات الغرب...

لم يكن عباس كثير اهتمام بالهدايا، فهو لا يعير للباس اهتماما، فقد قضى عمره في الأسواق برداء رث، لا يفارقه إلا ليلا أو حينما يكون في سفر إلى مدينة أو وليمة... كان أحب الأشياء إليه أن يجالس الناس في جماعة، يتبادلون أطراف

الحديث في أمور شتى، وخصوصا ما تعلق بالأسواق. لذلك انتظر بشوق أن يدعوه اسعيد كعادته في كل زيارة إلى جلسة ليلية، يستمتع فيها بما يحكيه ولد المعيطي عن "بلاد الكفار" كما يحلو للرداد تسميتها... وكثيرا ما كان اسعيد يطيل الحكي عن مغامراته، وعن الأحداث التي صادفته وهو في طريق عودته... جلس اسعيد في صدر القبة (وهي بيت الضيوف كما يسمونها)، وإلى جانبه جلس أستاذ مدرسة الدوار، وعدد من المقربين والأصدقاء القدامى، كان ولد المعيطي يقضم حبات الحمص المقلي، يقطع بها مشروب خمرته البيضاء المعتقة، يخلط مقدار ملعقة كبيرة مع كوب ماء من الحجم المتوسط، يشرب أولا ثم يسقي ندماءه التائهين المستغربين. هم لا يعرفون غير الخمرة الحمراء ذات الرائحة القوية، يعبونها تباعا حتى يتلفوا كل شيء، ومنهم من يتقيؤها فتملأ أطراف ملابسه، فيروح في حالة لا يحسد عليها... يذكر الرداد قصة الجيلالي الذي شرب حتى ثمل في خمارة الفيلاج، أحس بضيق ودوار، فخرج يشم بعض الهواء، لكنه سقط في حفرة وراء الخمارة، امتد الخدر إلى سائر جسده، ولم يعد قادرا على طلب النجدة، فظل مرميا بالحفرة، خرج بعده عربيد آخر فتبول على الحفرة وهو لا يعرف من بها، كان الجيلالي يحس بذلك لكنه لايستطيع منعه، وحين استفاق الجيلالي، واستعاد قوته، قام يجر رجليه، ودلف إلى الخمارة متمايلا... حكى لهم ما جرى، فضحكوا. ندماء اسعيد في تلك اللحظة يكذّبون مدى فعالية هذه الخمرة البيضاء، لكن اسعيد كان ينلههم إلى قوة فعاليتها، فهي غالية الثمن، سريعة المفعول... وبمجرد شرب أول كأس، تغيرت نظرتهم، وصاروا يتحاكون سريان السخونة والارتخاء

في جوارحهم... كان اسعيد يستمع إليهم مبتسما، يدخن سيجارة غريبة، امتدت إليها أياديهم دون إذن منه، فوضع على الطاولة علبا كثيرة، واستفرد بالحديث عن الغرب حين سمع الرداد ينعت أهله بالكفار فقال:

هم يدينون بدين أو ديانات أخرى، وهذا شأنهم، لكنهم أقرب منا بكثير إلى أخلاق الإسلام: أتعلمون؟ ثمة ضيعات في بلاد الغرب، يتخذ أصحابها دكاكين لبيع منتوجاتهم، يعرضون البضاعة والثمن وبعض النقود من أجل الصرف وآلة حاسبة، فإذا جاء الزبون، اقتنى ما يريد، ثم وزن البضاعة، وعد ثمنها وأدى ما عليه ثم انصرف دون أن يكلم أحدا، فلا أحد أصلا في الدكان... ضحك عباس وآخرون مستغربين، ثم سأل أحد الحاضرين:

أيحدث هذا في بلادهم؟ إنني إذا صليت في مساجدنا لا آمن على بلغتي، إذا لم أضعها أمامي عدت إلى بيتي حافي القدمين... قال اسعيد: مسألة تربية واحترام للقانون وإحساس بالمسؤولية...

لتغيير الموضوع، توجه اسعيد إلى الحاج مبارك فقال:

-مبروك عليك الحج آسي مبارك

-الله يبارك فيك، مشينا غسلنا عظيماتنا

-جات معك الجلابة البيضا والطاقية... مناش غسلتي عظيماتك من فلوس الحليب لي كنتي تخلطيه بالما، ولا من كذوب الرحبة، ولا من خوك لي كلتيه في الورث، ولا من عمر لي صيفطتيه بشهرين ديال الحبس بشهادة الزور...؟

(يضحك الجميع ويتظاهر الحاج مبارك بالضحك)

-أودي هنينا أ ولد المعيطي

-غانضحكوا آ الحاج ماتقلقش...
يقفز الرداد من بين الحاضرين، ويقول: راه مشى صبغ راسو بالابيض وجا...
انتفض الحاج مبارك غاضبا، وكاد يضرب الرداد لولا أن وقف بينهما أحد الشبان الحاضرين. أدرك اسعيد أنه كان سببا في ذلك الشنآن، فحاول تلطيف الأجواء وهو ينادي على أخيه أن يحضر طعام العشاء...
تحسسوا جوع بطونهم، وانغمسوا في الأكل، وسط صمت غريب عن الجلسة...
حاول عباس تكسير ذلك الوجوم العقيم فقال: سبحان الله، الناس بعد كورونا" أصبحوا سريعي الغضب، قليلي الصبر، يتخاصمون لأتفه الأسباب...
أجل أجل، رد ولد المعيطي، ثم أخذ يرحب بالجميع من جديد، ويدعوهم للأكل دون اكتراث لما يدور، يقول:
"كولوا ما تديوا معكم غا ما كلتوا وشربتوا"
فيعقب أحدهم على كلامه:
"ما تدي معك غا العمل ديالك"
يصمت اسعيد في إشارة صريحة إلى صدق المعقب...ثم نطق مستفسرا:
ماذا جرى لهذه البلدة يا ترى؟ كانت مياه السواقي لا تنقطع أبدا، حتى إن انفلاتها من القنوات كان يسقي جنباتها الخضراء المزهرة، فكانت البهائم في نعمة وشبع... كنا إلى زمن قريب نبحث عن عمال في الحقول فلا نجد أحدا، وكنا نضطر للذهاب إلى دواوير أخرى لجلب العمال. ماذا جرى حتى اكتظت القرية بناسها، وتناسلت البنايات العشوائية في كل ربع، وخلت الحقول إلا من

الأتربة والصخور، وتبدلت الوجوه فأصبحت كالحة تميل إلى سمرة داكنة... أية ريح صرصر عاتية ضربت هذه القرية المنكوبة؟ فأصبحت لا ترى غير نساء وأطفال وشبان يقصدون السقاية الوحيدة لجلب الماء في قنن وبراميل بلاستيكية...؟ لقد سمعت أحدكم يطلب من الآخر أن يناوله درهما ، ماذا سيفعل بذلك الدرهم؟ لقد أصبح الأثرياء يتحدثون بالمليارات بعد أن كانوا يتحدثون بالملايين، وأنتم تستلفون الدرهم من بعضكم البعض؟

رد عباس: إنه الجفاف يا ولدي...إنه الجفاف...

غسلوا أيديهم، ثم تفرقوا على أمل العودة في صباح الغد، حيث وعدهم اسعيد بفتح الرزم والشنط والحقائب، وإعطائهم بعض الهدايا... وهم يغادرون، لم يسلم المشهد من تعليقات الرداد الذي اعتبر صباح الغد فترة لانعقاد "جوطية" أخرى في منزل ولد المعيطي... وتمنى لو تكون هديته عبارة عن جهاز "مسجلة" ، يستمع عبرها للأغاني المسجلة في أشرطته الخاصة...

تسلم الأهالي والجيران هداياهم التي تباينت بين ملابس وأواني للمطبخ وألعاب للأطفال وأغطية وفوطات وأدوات إلكترونية ... لم يحصل الرداد على ما يريد، لكنه ظفر بغسالة تصبين صغيرة ومعطف وسروالين اثنين...

بعد شهور من رجوع اسعيد إلى بلاد الغربة، سوف يأتي ابن خالة الرداد من إيطاليا، وليس معه غير زوجته الإيطالية وحقيبة ملابسه. وقد أكد للرداد أن اسعيد ولد المعيطي يقضي ثلث النهار يطوف على أماكن القمامة، يجمع كل المرميات المناسبة... ويأتي بها إلى هنا، يوزع بعضها ويبيع ما غلا ثمنه منها... لم

يكن الأهالي يهتمون لما قال، فالأهم لديهم أن يحصلوا على شيء بالمجان...خاصة في تلك المواسم الجافة...

قبل سفر اسعيد، كان يجتمع قرب حانوت "علي" مع بعض شباب البلدة، يحدثونه عن رغبتهم في الهجرة إلى الخارج. فكان يحاول أن يشرح لهم صعوبة العيش بدون أوراق قانونية، ويبين لهم أن ظروف العمل قد تغيرت تماما، لكن كان يصعب عليهم تصديقه وهو يشرب الخمرة البيضاء المعتقة ويدخن سجائر فاخرة ويركب سيارة طويلة لامعة... كانوا يقولون: مهما تغيرت الأمور فإنها لن تكون أكثر سوءا مما يعيشونه من ركود بسبب غياب فرص العمل، خاصة منهم من قضى عمره في الدراسة لا يعرف صنعة ولا تجارة... أغلبهم يعمل ليل نهار من أجل توفير مبلغ يسمح له بركوب الموج ، غير مكترثين بما يأتي... يجعلون نتيجة المغامرة أمرين اثنين: "ذبحة أو ربحة" ، وينسون أمرا ثالثا ، "لا ربحة لا ذبحة" ، وإنما فشل المحاولة وضياع المال والجهد والعودة إلى نقطة الصفر... هكذا كان ينبههم اسعيد دون جدوى... كان كمن ينفخ في رماد... شبان ينامون النهار جله، يتحلقون حول حلقات لعب الورق، يمجون دخان السبسي بالتناوب، يضعون "الكالة" في شفاههم، يدخنون السجائر، يعاقرون الخمرة في الأعراس والمناسبات، يسهرون إلى ساعات متأخرة من الليل، وينتظرون الذي تأتي أولا تأتي به الأيام الموالية... حتى الآبار التي كانت تمنحهم فرصة العمل في حقولهم الصغيرة قد طالها الجفاف وأصبح ماؤها غورا. أما الرداد العجيب فاختلطت عليه الأمور... كان يقول للجماعة المتحلقين حول لعبة "ضامة" (ربما سمع هذا الكلام من فم الغويط ذات جلسة):

اعتقدوا أن "المخطط الأخضر" سوف يمكنهم من التحكم في الغذاء، وربح العملة الصعبة من الخارج و من الداخل، يزرعون المنتوجات المربحة ويوجهونها للتصدير رغم استنزافها للفرشة المائية باعترافهم، ثم يستوردون كل ما يحتاجه الناس من حبوب وقطاني وفواكه وألبان وأبقار برازيلية،تعافها العين قبل البطن، وأكباش إسبانية مكورة وغيرها...، فيربحون من الخارج و من الداخل، لكن انسداد أسواق الحبوب عند أول عترة بسبب حرب الروس على أوكرانيا، أظهر عجزهم عن إيجاد الحلول والبدائل... ليتهم تركونا نأكل مما نزرع، ونشرب مما ينبع، ونلبس مما نصنع، ونضحك مما نسمع...

قال عباس: "بقى ليك غا الضحك... اش قربك لشي سياسة"

الرداد: وعلاش لا، ياك الريس عندنا عندو غا الشهادة، وشادها غا بالنقيل، راه دابا هو لي كيعطي النقط للموظفين المجازين باش يترقاوا...

عباس: واش غتمشي معايا نهار الجمعة للسوق ولا لا؟

الرداد: هانا موجود، اش غا نبقى ندير في الدوار، نقابل العيالات؟

يوم الخميس يوم راحة بلا راحة، شطبه عباس من يومية الأسواق بعد تراجع قوته البدنية، لكنه يقضي النهار في المنزل وما حوله، يرمم أدوات وأشياء ويرتب أخرى، يفتل حبالا ويقدم الأعلاف لما تبقى من ماشية في تلك السنة العجفاء...ويهيء عربته للسفر غداة ذلك اليوم إلى سوق الجمعة بقرية امطل، فيروح مرهقا كأنه ظل في سوق ...

بات عباس يفتقد تلك الحماسة التي كان يحس بها قبل وفاة زوجته الأولى، رحلاته إلى الأسواق صارت مملة ومرهقة. لم يعد يهتم للأرباح كما كان

في السابق، يجمع النقود مساء السوق في صرة، يضعها في جيبه وينصرف...حتى إشرافه على جبر الكسور طاله بعض الفتور، فكان يستعين بالرداد على القيام بذلك. بل كان الرداد يقوم بالعملية من أولها إلى آخرها، وعباس يوجهه...

صار عباس أكثر حكمة وأكثر تأملا للأشخاص والأشياء ، يُرجع خبوَ جذوة الحماس إلى عامل السن وإلى التكرار المملّ، فهذه الأسواق كما يقول تأبى أن تغير جلدها مثل ثعبان مسنّ، وتأبى أن تلفظ الثعابينَ التي سكنت سراديبها وجحورها ومغاراتها المتنوعة...كل الأشياء التي تأمّل الناس أن تغير وجه السوق، باتت عبئا عليه... كانوا ينقلون سلعهم وبضائعهم على متن عرباتهم وبغالهم بالمجان، وتأملوا خيرا ويسرا في وفرة وسائل النقل الحديثة، فصارت تثقل كواهلهم بمصاريف زائدة... كانوا يكتفون بنوعين أو ثلاثة من خضراوات السوق لتكون طبقا باللحم ليلة السوق، وتأملوا خيرا في وفرة الأنواع من الخضراوات، فأرهقت جيوبهم... فما لبث عباس يردد كلام صديقه الأستاذ الغويط الذي كان يقول: "تحتضر الأسواق، لكنها لا تموت، وقد تقتل بعض أصحابها..." يقصر فهمه عن إدراك المعنى الحقيقي للمقولة فيضيف: "قتلتني الأسواق، قتلتني الأسواق..."

حلق السوق فوق سماء المقدور عليه بسبب الغلاء، فكان عباس يعيد على أسماع جلسائه ما حفظه عن صديقه الغويط:

ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع

ثم يقهقه وهو يسعل ، يلتقط أنفاسه و يضيف:
فعلا لقد طار السوق غلاء، ووقع على رؤوسنا، ومن شدة الارتطام لم نعد نقوى على مقاومته، ولم يعد قادرا على إسعادنا كما كان في السابق...
يبادره شاب من الجلساء معقبا:
-ربما كبرت يا "با عباس" ولذلك تغير وجه السوق في عينيك...
-أجل يا ولدي، كبرت، لقد كنت دائما من أشد المدافعين عن الأسواق، لكن أمورا كثيرة قد تغيرت، وهذه سنّة الحياة. بالمقابل، ألا ترون معي أن الناس لا تحترم الأسواق؟ فكلما أرادوا ذم سلعة قالوا عنها : (إنها سلعة سوقية)... حتى الكلام القبيح ينعتونه بالكلام السوقي...؟
-ربما يرجع ذلك إلى نوعية السلع المعروضة في الأسواق، فغالبية المتسوقين من البدو الذين يبحثون عن السلع الرخيصة، لذلك يجلب التجار هذه العينات من السلع... وربما أيضا بسبب ما نسمع مرارا من كلام فج وقبيح داخل أسواقنا...
يترك عباس الرداد ومن معه في خيمته بسوق الجمعة، ثم يهيم على وجهه، يتأمل جنبات السوق...يتأمل دكان البريد الذي تحول إلى مقهى صغير، بعد أن غيبت الهواتف الرسائل الورقية، وغيبت الأيام ساعي البريد المتقاعد، ويتأمل مكان خيمة "طبيب الأسواق" التي حلت محلها خيمة عطار، يعرض إلى جوار التوابل والعطور والمساحيق أشياء غريبة: هيكل عظمي لجمجمة ثعلب، جلد جاف لفأرة الخيل، طائر لقلاق محنط، جلد ضفدعة ... وكلما سأل عباس العطار عن جدوى هذه المعروضات الغريبة، كان يأمره بالابتعاد عما لا يفهم

فيه... يتعب عباس من المشي، فيقتعد صخرة مظلَّلَة بسور السوق العظيم، ثم يتابع وجوه الناس وهو يهرولون لقضاء مآربهم، والعرق يتصبب منهم، والقلق يعتور أحاسيسهم، وطنين الحشرة الغريبة لا يبرح أسماعهم...

لم يعد عباس يلقي للطنين بالا، كان يقول للجماعة المشتكين:

" أنا لحمي مات، ما بقى يكر فيه تزنزين"

تعاقب الأيام لديه لم يعد يعني غير تعاقب الأسواق، وغياب الأسواق بالنسبة إليه آحاد بالمعنى القديم... صباح السبت بنفس المكان الذي ينعقد غيه سوق الثلاث، ينصب عباس خيمته في مكان معزول، يتفرغ فيه لجبر الكسور وشد التفككات المفصلية... وفي هذا اليوم بالذات يستغل أخوه الفقيه جانبا من الخيمة التي تبدو وكأنها تعيش عزلة من نوع خاص، وكأنها تنتمي لزمن مضى، لكنها تأبى الأفول والانزواء كما تأبى الاختلاط بخيام الخضارين والجزارين والعطارين وغيرهم، في هذا اليوم وهذا السوق دون سواهما... لمحت الخيمة هذا الصباح، وأنا أغادر سوق السبت بسيدي بنور، وهو تجمع صغير للبيع والشراء، وتساءلت عن سبب اختيار صاحبها لهذا المكان المعزول. هل كان يتفادى أصوات الأبواق وضجيج الباعة والجائلين أم كان يقصد أن يكون معروفا لدى الناس بعزلته؟ أخرجت هاتفي، والتقطت صورة للخيمة من الخلف (وللأمانة فقط، فهي صورة غلاف هذا الكتاب)، وألقيت نظرة بداخلها، فرأيت الفقيه بلباس تقليدي يمسك بيده قلما من قصب، يغطسه بين الفينة والأخرى في دواة، ويحرر صكا للجالسة قبالته،

تنتظر أن يكمل مهمته، فتنصرف إلى السوق وقد حملت في جرابها بركة الخيمة المعزولة!!! نفس المرأة التي تبتغي الاستشفاء من الخيمة المعزولة، هي من كانت تنتظر دورها للتقيد في سجلات التغطية الصحية الإجبارية، وهي نفسها التي التقيتها عند باب السوق تحمل حلوى معلبة كي تحتفل برأس السنة الميلادية. كل عام والخيمة بألف خير...

أما عباس فكان بمعية الرداد يشد ركبة زبون غاضب، يلقي باللائمة على "لمقدم" الذي استعجله في هدم براكته عقب القرار القاضي بتحويل ساكنة دور الصفيح إلى حي سكني جديد، لكن المسكين وهو يجمع الأعمدة، سقط ضحية انزلاق مفاجئ فتوعك... سأله عباس إن كان قد تدبر مسكنا مؤقتا ريثما يتمكن من بناء منزله الجديد فقال: الأمر أصعب من ذلك يا عباس، فنحن أصحاب العربات المجرورة بتنا نتساءل عن كيفية الحفاظ على العربات، مصدر رزقنا وعيشنا... لا شك أن هذا التحول الكبير سوف يغير ملامح المكان، ومساعي الأشخاص، يبدو أن علي البحث عن عمل آخر...

صمت عباس برهة، وقد استغرق في تفكير عميق، لم يكن بمنأى عن هذا التحول الكبير، فهو صاحب عربتين مجرورتين، ولذلك بدأ يفكر في التخلص منهما عن طريق البيع...

ضحك راوي الرواة حتى استلقى على ظهره، بدا شامتا في السارد يقول:

تبعت عباس في الأسواق جلها، تلهثان كلاكما لهاث كلب حملت عليه نوائب الدهر والقهر، لم تجن شيئا أيها السارد المغمور، بل جنيت على عباس: تبعته حتى باع العربتين، وإذا استمر لهاثك خلفه، فسوف يبيع الخيمة قبل أن يلقى الرفيق الأعلى...

أيها القراء الأعزاء، لا تأبهوا بكلامه، فليس عباس وحده من باع أو تراجع، وإن كانت حقيقة الوجود البشري تنتهي من حيث بدأ الخلق، تبدأ بالتراب وتنتهي إلى تراب...

على حافة الأسواق أيها الأعزاء، تبدو الحياة شاهقة مثل جبال شامخة، عبر فجاجها يتردد صدى الأبواق، مثلما تردد الجبال صدى الأصوات المنبعثة من حلوق الرعاة... هناك حيث يتحول الصفير إلى لغة، وفرقعة الصخور إلى لغة، وصوت الرصاص إلى لغة، ينبعث من فوهات البنادق كي ينقذ صيادا تائها في البراري الموحشة...

وعلى حافة المساحات الشاسعة تبدو الأسواق فوّهة بركان خمدت نيرانه وتناقصت أدخنته، و تعتمل بداخله نيران مشتعلة في تدافع مستمر مع مياه مسجورة...

وعلى حافة العمر تبدو الأسواق والمساحات لوحة فنان متشائم، رسمها في غفلة من الفصول الأربعة، وتركها في مرسم قديم، قبل أن تمتد إليها يد مجهولة، فتبيعها بثمن يجانب حافة المنطق والمعقول... حين تدخل اللوحات الفنية عالم الأسواق، يتغلب معيار التجارة على معيار الفن، ويصبح التقييم بمنطق السوق لا بمنطق الإبداع. حينها تتغلب الأسواق على المساحات، مساحة الفكر ومساحة الفن ومساحة الأدب وغيرها من المساحات ... حين جمعت سوق عكاظ قديما بين مساحة الفكر ومساحة البيع والشراء، بلغت شهرتها الآفاق. بالرغم من أن مصدر شهرتها كان مرتبطا بالأساس بالبضائع الأدبية التي كانت تتواجد إلى جوار البضائع المادية من سمن وعسل وتمور وخمر وملابس وإبل... فقد كان الشعراء يأتون إليها محملين بقصائدهم، يعرضونها على محكّمين من كبار الشعراء آنذاك، يطمح كل منهم أن تعلق قصيدته على أستار الكعبة، فيحظى بتشريف ما بعده تشريف... وكان يجاور الشعراء في الإلقاء خطباء من الفصاح، يستعرضون فصاحتهم وقدرتهم على الإقناع والإبهار...كانت السوق بذلك بؤرة للمفاخرة والمنافرة بين الناس والقبائل، أدت في بعض الأحيان إلى مشاحنات وحروب...

وحين اقتصرت أسواقنا على البضائع المادية، انغمس الناس في تعداد أصناف الخضر والفواكه والتوابل والعطور والدواجن واللحوم والألبان وغيرها من

المواد، وتجاذبتهم الأثمنة والأزمنة ، وتلاعبت بهم الأرباح والرياح، فتحولوا من سمة الرجال الأقحاح، إلى عبّاد الدراهم والأرباح، وتناقل تفاهاتهم الباحثون عن الجراح، من ذوي الميكروفونات الإسفنجية، والقلنسوات الإفرنجية، الباحثين عن أكبر "شمس العشية"، والسائلين عن أثمنة الخرفان الأندلسية والأبقار البرازيلية وغيرها ... فتهاوت الأسواق حتى أصبحت سلعتها سوقية، وسمعتها سوقية... وحين تزينت أسواق المدن، لتنفض عن نفسها غبار التفاهة، صبغت نفسها بالأضواء والرخام والزليج والزجاج الشفاف، فلم تغير من سمة الأسواق شيئا غير الأثمنة... بل إنها لم تعرف من الأسواق إلا البيع والشراء...

هذا ما كنت تريده يا راوي الرواة، أن تخرجني من برجي، فأنا من برج الجوزاء، أحب التجديد والمغامرة، وأكره التكرار والملل، عاطفي بشكل كبير... أدخلتني عنوة إلى برج العقرب، فأحببت الأسواق بشدة، وكرهت صباغاتها المتنوعة بشدة أيضا، جعلتني ملاكا وشيطانا في نفس الوقت، ملاكا يربت على أكتاف المتسوقين، وشيطانا يوسوس في صدر الكلمات الغاضبة من الأسواق والمساحات... دعني أكمل الرواية من فضلك، وأعدك أنني لن أركب حافلة تُقِلّكَ أبدا... لا حاجة لي بالجلوس في المقعد الأمامي المحاذي للسيد السائق، ولا حاجة لي بالجلوس إلى جوار فتاة مسافرة، ولا حاجة لي بوضع حقيبتي في عهدة أحد... ولا حاجة لي بسماع أم كلثوم عبر بوق الحافلة، ولا

حاجة لي بدعوات الصاعدين والنازلين من أولئك الفكاهيين الذين لا يُضحكون، أو أولئك العازفين على أوتار ملفقة، أو باعة المرهمات والعشوب الكاذبة، أو مفتعلي الإعاقات المتسولين... سوف أمتطي حافلة لا تقلّك والسلام... أريد أن أركب حافلة لا تقلك، ذات مقاعد فارغة، أجلس حيث أريد، أتحدث مع الغرباء كما أريد، أنصت إلى دماغي وعظامي ... وأنزل حيث أريد...

منذ أن بدأت أيها (المسموم) وأنت تسمم عظامي بكلامك وحماقاتك، تريدني أن أكتب على مزاجك، على منهج قواعدك، وألا أحيد عن خطوطك الحمراء قيد أنملة... بل أن أفكر كما تفكر... بالله عليك، قل لي: ألا ترى بعد كل هذه السنون والقرون، أن العالم رغم كل ما يزعمون، قد فشل فشلا ذريعا في تخليص الناس من الحروب؟ قنبلة واحدة كانت كافية لإعلان الهزيمة النكراء، هزيمة المفكرين والمنظرين والسياسيين والفلاسفة والأدباء والفنانين وغيرهم... فيم أفادتنا الكتابات السابقة جميعها؟

من الآن فصاعدا، سأتجاهل خطوطك الحمراء والصفراء والزرقاء... لن أركب حافلة تقلّك، وإن أمعنت في عنادك، وحرمتني من ركوب حافلات النقل العمومية، سأمتنع عن ركوبها ولو كلفني ذلك الركوب مع "خطاف"... أريد أن أجلس كما يحلو لي، وأكتب كما يحلو لي، وأتحدث مع من أريد، وأقص كل ما لدي من حكايات على من أريد، ولتضرب رأسك مرة أخرى في أقسى حيطان السوق...

مرة بعد أخرى، وأنا أغادر خيمة عباس، أتفرس وجوه بعض الباعة، يترصدون فرصة الانقضاض على زبون ساذج في رحبة الملابس، كنت ألتقي "شخشيخة"، أو الفيلسوف المشرد كما يلقبه عامة الناس. شيخ نيّف على السبعين، ذو لحية طويلة كثة، يخالطها الشيب بكثافة، بشرته السمراء تميل إلى السواد من فرط تعرضه لأشعة الشمس، ثيابه رثة بالية، ورجلاه حافيتان على الدوام... يحمل على كتفه كيسا شبه مملوء بالمتلاشيات، يطلق الكلام على عواهنه متى شاء وكيف شاء، يسمعه المتسوقون، فيجعلون منه مواضيع حلقاتهم في مقاهي السوق، يؤولون كلامه حسب الأفهام والأوهام... كان يكره النقود، يرفض أن يتسلمها منهم، بل يشيح بوجهه عمن يمد إليه بعضا منها، ويمضي هاربا وهو يردد: "وسخ الدنيا... وسخ الدنيا..."، ولا يتسلم من الأكل إلا الخبز على قدر حاجته، لا تفارقه منساته الخشبية، يبيت في العراء كل ليلة، ولا يتكلم إلا نادرا، وإذا تحدث أطال...لا يعلم كثير من المتسوقين أصله وفصله، لكنه كان يتحدث عن نفسه مرة بعد أخرى، فيذكر أنه كان إطارا كبيرا في الإدارة، وأنه حاصل على شهادات دراسية عليا، ودبلومات في تخصصات مهنية. كان يقول:

"الشهادات العليا والدبلومات قد تجعل منك موظفا بهندام أنيق وربطة عنق، و قد تفتح أمامك باب التشرد..." ثم يضيف: في النهاية لا أحد سيأخذ معه

شيئا من هذه الحياة، سيترك شهاداته ودبلوماته وممتلكاته وكل شيء...، ثم يلوذ بالشرود...

صبيحة سوق السبت، كان يطوف في ساحات السوق ويصيح بأعلى صوته وهو يقهقه شامتا:

"البارحة أيها الأوغاد، كلكم صرتم مشردين مثلي، بتنا جميعا في العراء، الأستاذ والمحامي والمدير والقاضي والجزار والبناء والإسكافي و بائع السمك و.... فررتم جميعا من منازلكم، خلفتم وراءكم كل شيء، منكم من فر هاربا كما ولدته أمه... كل ذلك بمجرد أن اهتزت الأرض اهتزازا قويا، أتى على دواوير بأكملها في الحوز وما جاوره...

ثم يردف: لا بأس، لا بأس... ستبرأ الجراح. كان حزني عليكم كبيرا جدا، لكنني فرحت بقوافلكم السخية، لا تزالون بخير، لا تزالون بخير..."

أمسك من يد أحدنا قطعة خبز ومضى...التفتنا فلم نجده...

عدت فور ذلك إلى خيمة عباس، الجميع يتكلم عن زلزال ليلة الجمعة، روايات لا تنتهي...تجمع بين الوقائع والقفشات والافتعالات والانفعالات وغيرها، "كثرة الهم تضحك" ...

الناس يجلدون ذواتهم وأنفسهم جلدا، ويسألون الله اللطف في الختام...

-الرداد: السوق بعد الزلزال لا يشبه السوق قبله... سبحان مبدل الأحوال

-الفقيه: الزلزال آية من آيات الله، وهو ابتلاء عظيم، نسأل الله أن يرحم أمواتنا، ويشفي مرضانا ومصابينا وجرحانا، ويصبر من فقدوا أهاليهم.

قال الجمع: أمين.

عذرا راوي الرواة، فهذا الموضوع يسع روايات بأكملها، لكن دعني أسرد مشهدين مؤثرين فقط لا غير:

-امرأة ناجية تلهج بحمد الله على الزلزال الذي جعلها وأهلها ينعمون بكل هذه الخيرات، وكل هذا التآزر، وكل هذه الرعاية التي لم يشهدوا لها عبر التاريخ مثيلا...

-رجل يحمد الله على أن الزلزال ضرب قبيلته ولم يضرب الناس في المدن، وحين سألوه لماذا، أجاب: لو حصل ذلك لديكم ، ما كنا لنجد ما نزودكم به...

عرج عباس على خيمة الجزار علي، اشترى كمية إضافية من اللحم، فلم يمنع الفضول الجزار من الاستفسار عن سبب هذه الزيادة، رد عباس بكل هدوء وهو يخفي امتعاضه من تلك الطفيليات السوقية التي لا تنتهي، فالناس يريدون أن يعرفوا كل شيء عن الآخرين، حتى وإن كانوا لا يستفيدون من ذلك شيئا... :

-ابنتي ستزورنا هذه الليلة

-جيد، أما تزال تدرس في الكلية؟

-أجل، هذه هي السنة الأخيرة بالنسبة لها، بعد يومين سنسافر معها لحضور

مناسبة تخرجها، سوف تقدم أطروحتها من أجل نيل شهادة الدكتوراة
-تبارك الله، "هي غا تولي طبيبة"
-لا ، دكتوراة في الأدب
-الله يكمل بالخير
-أمين.
عباس رجل أمي، يكتفي في جيبه بهاتف قديم بحجم موزة صغيرة، لكنه أصر على أن تكمل ابنته دراستها، بل كان ينصت إلى نصائح وتوجيهات صديقه الأستاذ عبد الرحمان الغويط، فكان يوفر لها كل ما تحتاجه من مسكن وملبس وغذاء ومستلزمات الدراسة طيلة مشوارها الدراسي ... كانت فتاة طموحة وصبورة، تحدّت كل الصعوبات من أجل التأقلم مع ظروف المدينة، وأفرزت لنفسها شخصية ذات كاريزما مميزة. كل أساتذتها أثنوا على سلوكها وإمكاناتها العلمية، واستبشروا خيرا بانضمامها يوما إلى طاقم التدريس بالجامعة... هكذا بنَتْ سمية بنت عباس لنفسها خيمة من نوع آخر، ومثلت بذلك نقطة ضوء مشعة وسط العائلة، بل وسط القبيلة التي احتضنتها واحتفلت بنجاحها في يوم لم تشهد له القبيلة مثيلا... كان هذا النجاح حافزا لبنات الدوار وأولاده للإصرار على استكمال دراستهم، وتجاهل التعليقات المحبطة لكثير من المثبطين والعدميين... كان حفلا رائعا، ذبح فيه عباس عجلا حنيدا، وغنت النساء حتى وقت متأخر من النهار، ومثلت فيه ميمونة دور

الأم بامتياز، رغم أن سمية كانت بين الحين والآخر تذرف دموعا ساخنة حزنا على والدتها، فقد كانت تتمنى أن تحضر معها وتفرح معها وتسند ظهرها في لحظة فرح كبرى... كانت ميمونة كلما شاهدت دموع سمية تضمها إلى حضنها وتربت على كتفيها، ثم تمسح دموعها وهي تقول: "أنا أمك يا ابنتي"، وتأمر النسوة بالاستمرار في الرقص والغناء... شيء آخر كان يحزنها، وهو عدم تمكن أخيها نبيل من حضور الاحتفال بنجاحها. وهو أمر كان يحزن والدها أكثر من ذلك... لكن عباس كان يتحاشى الخوض في هذا الموضوع مع ابنته خوفا عليها، فهو يعلم حساسية وضعها النفسي بعد وفاة والدتها. فلولا أنها وافقت على

زواجه من ميمونة ما كان ليقدم على الزواج بعد والدتها مطلقا... لقد أخرجت والدها من دوامة الحزن والاكتئاب الذي كاد يعصف به، وأدركت أن زواجه سوف يكون حلا سريعا يخلصه من مغبة الوساوس والهواجس... أما نبيل فقد استاء من تلك الخطوة المفاجئة عندما أخبرته أخته سمية بذلك عبر الهاتف... وربما أدرك حينها أنه أخطأ التقدير بالابتعاد عن منزل أبيه والسفر من أجل البحث عن عمل في معامل المدينة العملاقة... كان يعاتب نفسه وهو يتحدث إلى زوجته نبيلة:

ليتني مكثت إلى جوار والدي، وأرحته من عناء الأسواق والحقول، لو فعلت ذلك، ما كان أبي يقدم على زواج كهذا. الزواج في أواخر العمر صفقة

خاسرة، خصوصا أنه سمع أخته تقول لميمونة وهي تخطبها: والدي رجل مسن يستعين على المشي بمنساة، ويرغب فيمن تساعده على الوقوف وتمده بالمنساة... ميمونة كانت بدورها أرملة تجاوزت الخمسين، أثقل كاهلها العمل في الحقول والضيعات الفلاحية، كانت ترغب في من يعيل طفلتيها الصغيرتين... وهكذا كان...

(لا حب ولا هم يحزنون)...

منبت الكتابة الحب، في الحب تجتمع زمرة الأحاسيس عدا الإحساس بالموت، فيه تتجسد كل الأحاسيس، حتى الإحساس بالكراهية... الكراهية هي الوجه الآخر للحب، أن تكره شخصا ما أو شيئا ما، معناه أن تنتصر لذاتك، أن تحب ذاتك بعيدا عن هذا الشخص أو الشيء... لا يفهم عباس، وربما لم تخطر له على بال أسئلة كهذه: لماذا أحب الأسواق؟ لماذا أحب الخيمة؟ لماذا تعلق بصديقه الرداد؟ لماذا أحب فلانا وكره فلانا؟ لماذا صرخ في وجه الجميع دفاعا عن الخيمة، ومداراة للخيبة؟ لقد أحب السنوات الماضية، لأنه لا أحد تجرأ أمامه خلالها على استصغار الأسواق وانتهاك حرمتها... وكره الحاضر حين تجرأ عليه من يخالف رغبته في الحفاظ على الخيمة... كان يصرخ في وجوههم قائلا:

الخيمة هي الظل الذي يحميك من ضربة شمس، قد ترسلك في أحسن الأحوال إلى عيادة طبيب، وقد ترسلك في أسوئها، محمولا على الأكتاف إلى رمس في مقبرة النسيان... وكم نصحت عباس أن ينسى... لكنني كنت

أتساءل في قرارة نفسي وأنا أسترجع حكاياته الكثيرة المصبوغة بدهان القسوة والمرارة:

ترى هل باستطاعته أن ينسى؟

هل ينسى الجزار الذي فقد سكينه، ودخل بسببها إلى السجن حين عثروا عليها مرمية إلى جانب جثة مقتولة، ودلتهم البصمات على صاحبها، فقضى في الحبس أعواما بتهمة ملفقة، وخرج مقطوع الكف بعد عراك مع صعاليك السجون، إذ قيدوه بلباسه، ولووا كفه حتى قطعت وغاب عن الوعي... ثم تحول بعدها من جزار إلى جائل يستجدي عواطف المتسوقين؟

هل ينسى الرجل المحبوب الذي ملك قلوب القبيلة، فهمس في أذنه شياطين البدو أن ترشح في الانتخابات، فجعلوا منه رئيسا، عاشر أصحاب المجالس حتى صبغوه بدهان السياسة، فصار يخرج عينيه في الأسواق حتى نعتوه بالحرباء التي فقدت حياءها...؟

هل ينسى حكاية العرافة التي قضت إلى جانبه أعواما عديدة، يلتمس لها الأعذار ويشفق من حالها، فلطالما تمسكنت وهي تزور خيمته، و تدعي العوز والحاجة، وتسأل الله أن يتوب عليها، فتقلع عن هذه الحرفة المشبوهة...؟

طلب مني أن أقص حكايتها أمام الأستاذ الغويط فقلت:

"كم ردد حمدان، ابن قبيلتنا، أمام الجماعة، كلما خاضوا في حديث العرافات والمشعوذين، عبارة حفظها بالسمع عن فقيه المسجد في قريته :

"كذب المنجمون ولو صدقوا"...

لكن انبلاج صبح ذلك اليوم المشؤوم، أتلف لديه كل محفوظ أو مسموع، إذ رأى ثقبا كبيرا في الجدار الخلفي للحظيرة، فتبين نقصان ثور من القطيع... اختلطت عليه مشاعر الحسرة والذهول بدُوارٍ يجلب الغثيان، وسط ولولة الحريم يندبن حظه العاثر.

وجد نفسه، أمام إصرار النساء، يركب الحافلة باتجاه عرافة شهيرة، لم تكف زوجته طول الطريق عن مدحها قائلة: "إنها تسقط النجوم في عز الظهر، وتجلي السراب في لفحة الحر، وتكشف حجاب الغيب ولا ريب"!!! لم تكن العرافة سوى جارة عباس في السوق... أصر حمدان على الظهور أمام الركاب بمظهر الحازم الصبور، فانشغل عن كلام زوجته بملاعبة ابنه الصغير على مضض، بينما طفق جواسيس العرافة الشهيرة يجذبون الزوجة الثرثارة، لابسين أردية التعاطف والمسكنة...

وما إن دخلا على العرافة دخول الخائفين، حتى بادرتهم بالكلام دون سلام:

" جئتما يوم الإثنين سائليْن عن ذي القرنين، الثور الأحمر الجذاب، الذي أسال للصوص اللعاب، فهتكوا عرض الجدار، وسلكوا به طريقا بعيدة المشوار. اركض برجلك قبل أن يُرْدوه ذبيحا، ولا تنس قبل الانصراف أن تترك "واجب الأسياد" في الجراب، كي تتيسر لك الأمور ويذهبَ عنك نحسُ الغراب"...

فعل كما سمع، ثم همّ بالانصراف، لكن العرافة أمسكت يد ابنه الصغير وصاحت: " لا تدع لهفتك على البهائم تنسيك مراقبة هذا الصبي الضعيف، الذي خالفت خطوط كفه الداخلية خطوط الآخرين، إنها خط واحد يعبر الكف من اليسار إلى اليمين: فهو بذلك هدف منشود للباحثين عن الكنوز الدفينة... فالحرص الحرص عليه أيها الغافلون، فإن بريق الذهب يعمي العيون، ويذكي لهيب الجنون... فهم مستعدون لأجل ذلك أن يقدموا القبيلة بأسرها قربانا لمن يدّعون أنها جيوش الكنوز التي لا ترضى فدية لإعادتها إلى البشر إلا أن تكون دم طفل مسفوك...

أوجس حمدان خيفة من كلام العرافة، وارتعدت فرائص الأم ، فتبدلت حسرتها على ضياع الثور خوفا على الصغير. وأمسكت بذراعه مسكا لا يلين، ثم غادرا بيت العرافة تائهين.

طلبت الزوجة من حمدان العدول عن السفر بحثا عن الثور المفقود، مخافة أن يداهمها الباحثون عن الكنوز الدفينة فينتزعوا منها الصغير انتزاعا، لكنه أصر على الذهاب إلى السوق كعادته، فلطالما أزعج سمعها بكونه يصرف على البهائم أكثر مما يصرف على الأولاد... فلا غرو أن يغامر بالصغير بحثا عن الثور المسروق!!!

عاد حمدان من رحلة البحث العبثية منهك القوى دون طائل، فتحلق حوله الجيران سائلين مصبرين، وقوالب السكر في أيديهم، متهيبين أن يخبر رجال الدرك بالسرقة، فتتسع دائرة الاستنطاق لتشمل ذويهم الأبرياء، فتكفلوا

بترميم ثقب الجدار، وشروخ الخواطر المكلومة...

انشغل حمدان بالحديث عن الثور المسروق، وانشغلت زوجته بالحديث عن ابنها "الزوهري". فأوعز للسارق، وكان من بني القبيلة، شيطانه في غفلة من الجميع، أن يقوم باستدراج الصغير قصد إخفائه عن الأنظار، في محاولة لصرف الانتباه عن الثور المسروق. ثم عاد بعد ساعة ليجد ساحة المنزل تعج صخبا ونواحا ونحيبا...

حامت شكوك الدركيين حول السارق الذي بدت عليه علامات الارتباك أثناء التحقيق معه، فقد أُبلغوا برؤية الطفل قبيل اختفائه بصحبته، فخلصت التحقيقات إلى اعترافاته بإخفاء الصبي، ومشاركته في أغلب جرائم سرقة المواشي ضمن عصابة من خمسة أفراد، بزعامة العرافة الشهيرة التي كان دورها يقتصر على تضليل وجهة البحث لدى أصحاب البهائم المسروقة..."

كيف تثق في الخيام وأصحابها بعد هذا العمر يا عباس؟ وكيف تشفق بعد اليوم على امرأة تعلّم إبليس أساليب الغواية والخداع...؟ كل ما أرغب فيه الآن هو أن تحاول النسيان ما استطعت، فأنا أشفق عليك من روائح صباغات اليوم، التي تورّم العيون، وتُزكم جيوب الأنوف، وتلهب مهاوي الحلوق، فلا يحلو لك طعام، ولا يطيب لك شراب... أشفق عليك وأنت تقف على حافة العمر، تصارع أدواء السكر والضغط والروماتيزم...، وتجهد عينيك كي ترى أمامك، فتأبى عيناك إلا أن تقفل باب جفنيها، وتفسح المجال لعيون مخيلتك كي ترى عبر مرآة خيالك الخلفية ما رسخ من جمال... نحن نشعر يا عباس أن هذا الكم الهائل من البنايات والسلع والبهرجة والتواصل لا

يمت إلينا بصلة، نحسه في أغلب اللحظات "غولاً" يلتهم آمالنا في العيش الهادئ، نحسه أكبر منا بكثير، وأقدر منا على تكبيل حركاتنا وسكناتنا... نشعر أن هذا التقدم آلة عمياء تطحن الإنسان المستهلك طحنا، ولذلك كلما ضاقت بنا الأهواء، لُذنا بماضينا رغم قساوته، وضحالة الإمكانات المتاحة فيه....

عامان في حضرة "الإمبراطور الأعظم كورونا" الذي حكم العالم بأسره، عاش الناس في رعب شديد، واختنقت أنفاسهم في البيوت قبل المستشفيات، وعجز الأطباء عن إيجاد تفسير دقيق لما جرى... تحدث الناس إلى بعضهم البعض حديث السجناء مع ذويهم من وراء القضبان والمرايا الشفافة...

وحين اندلعت حرب الروس على أوكرانيا، انشغل الناس بالغلاء في أثمنة المحروقات والمأكولات والمشروبات وكل ما يليق أو لا يليق... وتجاهلت الأبواق الوباء، فتناقص الاهتمام به شيئا فشيئا حتى أصبح في خبر الماضي المكروه...

وحين تكاثرت أعداد الحشرة الغريبة في الأسواق، وضجت بها مسامع الناس، واكتووا بنيران الأسعار، وغياب الهدوء والاستقرار، وغابت عن الحكام الحلول، لم يجد الناس بدا من الصبر والصمت الحزين، وخلط الأصوات بالطنين...

وحين ضرب الزلزال منطقة الحوز وما حوله، وتحركت الأرض تحت الأقدام، وأدرك الناس أن لا ملجأ من الله إلا إليه، فتحوا خزائنهم، وجنحوا للتضامن في صورة أبهرت العالم بأسره، خففت عن الناجين آثار الحزن العميق على

فقدان ذويهم، فابتسموا للقوافل القادمة من كل صوب وحدب، وللعيون المتفجرة ماء من قلب الجبال، فسالت أودية بقدرها...

حتى عباس وغيره من المتسوقين، بعد الرجة، استبشروا خيرا باختفاء الحشرة الغريبة رغم بقاء الطنين في الآذان، فقد انصب تفكيرهم وكلامهم عن الزلزال العنيف المدمر، يحكي كل واحد منهم عن مكان تواجده عند الهزة الأولى، وعن هروبه ومبيته في الخلاء، وعما شاهده وسمعه أثناء الزلزال وبعد ذلك الحين ... جعله الله خاتمة المخاوف والأحزان والطنين...

تتسارع الأحداث تباعا، وتنتشر عبر الشاشات أخبار الزلازل والفيضانات والحرائق والحروب... ويصر عباس على ارتياد الأسواق رغم الوهن والداء، في انتظار عودة ابنه نبيل الذي سيأتي، وقد لا يأتي... لا أحد يستطيع إقناع عباس بالاكتفاء بما مضى، بالاستغناء عن الخيمة، بالابتعاد عن عشقه الأبدي للأسواق...

قرر عباس أن يبيع العربتين وبغليهما، فاقترح الأمر على المكتري، فبدا هذا الأخير غير موافق على البيع، فهما مصدر رزقه، وفرصة عمله وعمل ابنه الأكبر سنا. تشبث بالعربتين، ورفض فسخ عقد الكراء. حاول عباس جاهدا أن يجد معه حلا يرضيهما معا، وطلب تدخل بعض الأطراف من عائلة المكتري دون أن يجد حلا. فاضطر بعد انتهاء مدة العقد إلى رفع دعوى قضائية لاسترجاع عربتيه. ادعى المكتري أمام القاضي أنه اكترى العربتين فقط، وأن البغلين في ملكيته، اشتراهما من أجل تشغيل العربتين. لم يكن العقد يفصّل كثيرا من الأمور، بل اكتفى بذكر كراء عربتين والسلام... وقد وجد المكتري

ثغرة نفذ منها وادعى أنه اكترى العربتين دون بغليهما... بحث عباس عن شهود كي يثبت صحة امتلاكه للبغلين، فلم يجد أحدا، وذلك لكونه اشترى العربتين والبغلين دون إخبار أحد بذلك، حتى إن زوجته لم تكن على علم بذلك إلا بعد شهور. لكن المكتري استطاع أن يستدرج بعض ندمائه في الجلسات الخمرية، وأقنعهم أنه صاحب البغلين، فشهدوا له زورا أمام القاضي، وحكمت المحكمة بما شهدوا، واكتفى عباس بالعربتين. بل إن المكتري النصاب، عمد إلى جلب عربتين قديمتين من السوق، وادعى أنهما بقايا العربتين. وهكذا خسر عباس عربتيه وبغليهما ظلما وعدوانا... وشعر في أعقاب ذلك بالاحتقار والمهانة، فكان يقول للرداد:

"والله إن هذا الوغد قد احتقرني، لو جاءني بهذه الغطرسة في عز قوتي لكان لي معه شأن آخر."

وكان الرداد يطلب منه الصبر واحتساب الأمر عند الله... ويضيف : لن يربح أبدا رغم حيازة البغلين افتراء وجورا... لن يفلح أبدا، وسترى ...

صادفت الفترة عودة الأستاذ الغويط إلى البلدة لزيارة صديقه عباس، فالتأم الناس في جمع ببيت الرداد، فلطالما ألحوا عليه استضافتهم يوما، لكنه كان يماطلهم ويتحجج بمرض زوجته وعدم قدرتها على مواجهة نيران الأفران...

سأل الغويط عن أحوال السوق، فادعى الحاضرون أن الأمور على ما يرام، وأنهم ينتظرون فرج السماء بالغيث... منع عباس نفسه من طرح مسألة البغلين على الغويط، فهو لا يرغب في تعكير مزاج صديقه وجلسائه... بادر

الرداد إلى تناول الكلمة، رحب بالأستاذ وبالحاضرين، ثم استأذنهم في إخبار الغويط بما جرى في سوق الخميس، كما جاء على لسان الجزار العربي... أذنوا له فقال:

" رمى الجزار العربي بجراب اللحم المتبقي من سوق" خميس القصيبة" في شبكة العربة الخلفية، وأخذ مكانه، ثم شرع يحكي للركاب، على وقع حوافر الحصان قائلا:

في "رحبة البهايم" بأحد الأسواق، صاح أحدهم: "وا شفار آعباد الله" ، فانهالوا على اللص ضرباً باليمين وبالشمال، بالأكف والأرجل والهراوات، يتناوبون على توجيه اللكمات والركلات، حتى أَرْدَوْهُ قتيلا، ثم ذابوا جميعهم وسط الزحام والغبار المتصاعد، واستحالت الساحة خلاءً إلا من جثة هامدة ملطخة بالدماء، يرمقها المارة من بعيد، فلا تكاد تتبين من هرج السوق إلا عبارةً واحدةً تتردد: "قتلوه " ...وتفرق دمه بين القبائل...

حوقل الغويط متنهدا، لكن الرداد قاطعه مستطردا:

تَهَيَّبَ اللصوص أسواقاً عديدة، لايجرؤون على دخول "رحبة البهائم" في كل الأسواق. إذ شاع الخبر مدوياً، وشاهدوا بشاعة صور القتيل على صفحات الجرائد وشاشات الهواتف: فقد مات ذلك اللص ميتة كلب مسعور، بقَصاصٍ لم تُجِزْهُ قوانين الأرض ولا شرائع السماء، ولم تستسغه جمعيات حقوق الإنسان، ولا جمعيات الرفق بالحيوان...

قال أحد الحاضرين: نِعْمَ القَصاص ، ذلك أدنى ألا يتجرأ آخرون على سرقة أموال الناس وأمتعتهم...أنا لا أوافقكم الرأي، ولا أوافق كل الذين ينعتون من فعلوا ذلك ب "بقر علال"... فذلك شأنكم وشأنهم.

قال الرداد: أغرب من ذلك أن يستغل الأمرَ بعضُ الأشرار للتخلص من أعدائهم والانتقام منهم، بأن يترصدوا دخولهم إلى "رحبة البهائم"، فينادوا في الناس: "واشفار آعباد الله" فيهلك الأبرياء كما هلك اللصوص...

قال خلدون: فعلا، لقد جلست يوما على سور" رحبة الأكباش" قبيل عيد الأضحى بسوق" الثلاث"، أترقب دخول أحد الموظفين ، فقد أخذ مني مبلغا من المال مقابل وثيقة لم أحصل عليها، فوالله لو كنت رأيته ، لأمسكت بعنقه وصحت في الناس "واشفار آعباد الله"، فيقضي الله أمرا كان مفعولا...

ظل الغويط واجماً، يتابع أحاديث الآخرين ثم راح يتخيل الجالسين على أسوار "رحبة الأكباش"، وكأنهم يترصدون دخول من سرقوا مالهم أو متاعهم أو شيئا غير ذلك:

فمن يترصد دخول تاجر باعه بضاعة رديئة بضعف الثمن...

ومن يترصد دخول معلم سرق أوقات تمدرس أبنائه، لايحضر إلا لماما...

ومن يترصد دخول ممرض يبيع "دواء المخزن" للناس ويمنع عنهم الأقراص المهدئة للصداع، بل يماطلهم حتى في تسليم حقن الأنسولين...

ومن يترصد دخول سارق رمال" أولاد عمران" يبيعها بأغلى الأثمان للبنائين في الظلمات...

ومن يترصد دخول من قلص ميزانية تعبيد الطرقات المتآكلة حتى استحالت حفرا بلا عدد...

ومن يترصد دخول برلماني سرق صوته وتحول إلى ناطقٍ ينطق بما لم يَعِدْ به الناس..

ومن يترصد دخول ناهبي صناديق المال العام على اختلاف أنواعها وأوزانها وألوانها...

ومن يترصد دخول متحزب باع الوهم وسرق أحلام الناس...

ومن يترصد دخول نقابي سرق نضال الشغيلة بتسوية لا تناسبه إلا هو وأعوانه...

ومن ، ومن ، ومن...

استمر الغويط يحدث نفسه متسائلا: ماذا لو دخل كل هؤلاء لاقتناء أكباش العيد، فتحولوا جميعهم إلى أكباش فداء؟؟؟

حوقل الحاضرون، وانقسموا بين مؤيد لما جرى ومعارض... ثم تحلقوا حول المائدة في انتظار قصعة الكسكس...

أتوا على القصعة بأكملها، لحسوها كما لحسوا أصابعهم، وسلموها للرداد الذي علق قائلا: لا حاجة للنساء بغسلها، فقد غسلتها أصابع العفاريت. انفجر الحاضرون ضاحكين، وعادوا إلى أماكنهم في انتظار كؤوس الشاي من يد الفقيه...

اعتدل الأستاذ الغويط في جلسته، ثم قال للجماعة:

احمدوا الله بهذه اللمة المباركة، أنتم لا زلتم تنعمون بمثل هذه اللحظات الجميلة رغم قساوة الظروف، أما نحن في المدينة، فلا نلتقي إلا صدفة في السلالم والممرات... أنتم محظوظون أكثر منا، واجتماعيون أكثر منا... ولاشك أن الأسواق تلعب دورا كبيرا في استمرارية التواصل المباشر بين الأهالي...

لقد بدأنا نفقد التواصل حتى بين أفراد الأسرة الواحدة، تاه الناس في متاهات هواتفهم، والتمسوا التواصل الافتراضي مع الآخرين، ففقدوا بوصلة الرضا والأمان... وتغيرت أمزجتهم بتغير الأشكال والألوان، يتوهمون التقدم في الزمان والمكان، وهم يتجرعون الشقاء بالأطنان... أية صباغة هاته التي صبغت الأذهان وأزكمت الأنوف حتى تباعدت الأبدان، وبدا الهائمون أحياء وهم في قرارة أنفسهم يتجرعون كؤوس الرّان...؟؟؟

التفت الغويط إلى صديقه عباس، ابتسم في وجهه قائلا:

أما أنت أيها العزيز، فقد اكتفيت بهاتفك القديم الذي لا يصلح إلا لإرسال أو استقبال المكالمات على ندرتها... لا زلت كما عهدتك من زمان تخلد إلى النوم مع احمرار شمس الغروب، مثل دجاجات وديوك زوجتك... تضع رأسك الفارغ من الهموم على مخدتك فتنام على الفور... (لا تابع لا متبوع)، وتمني نفسك قبل النوم في انبلاج فجر يوم جديد، تنعم فيه بقوت يومك ، وعافية بدنك، فتستبشر بحيازة الدنيا بحذافيرها، وتنطلق على متن عربتك، تحاور بغلك المحبوب، قاصدا أحد الأسواق في دورتك المعهودة...

دورة الأسواق لا تنتهي... تماما مثل دورة الكتابة، يتغير المتسوقون كما يتغير الكتاب، تتغير سلع الأسواق كما تتغير مواضيع الكتابة، وتستمر الأسواق كما تستمر الكتابة... هي حاجة الناس لتغذية الأبدان كما حاجتهم لتغذية الأرواح والأذهان... فإذا مالت في قوم كفة الاهتمام بالأبدان على الأذهان، وغلبت على جوهر الأشياء الألوان، فاقرأ على أرواحهم السلام وإن عَمَروا بصباغاتهم الأكوان...

ودورة الحروب لا تنتهي أيضا، بين حروب دينية وحروب أيديولوجية وما ترتب عنهما من أنواع الحروب، تروم أطرافها الظفر بالسيادة والقيادة، والإمساك بزمام الأسواق، فهي أول مفتاح من مفاتيح السلط جميعها... ولعل العولمة التي بشرت بنظام عالمي جديد لم تكن سوى حنين من أصحابها للتحكم في زمام الأمور ، بل حنين "للحزب الوحيد" بصباغة جديدة... ولعل صوت

الإمبراطور كوفيد 19 الذي حكم العالم بقبضة من حديد باسم منظمة الصحة العالمية، كان الصوت المسموع للعولمة ، الصوت الذي أدخل الجميع إلى منازلهم وجحورهم، وكمم أفواههم إلى حين... وحين أحس العملاقان الروسي والصيني بتصاعد المد النيوليبرالي، لم يجدا بدا من حمل السلاح، وكبح الجماح... ويعلم الله مصير صراع تخالطه الجراح ... (هذا ما يريد راوي الرواة سماعه، ولعلي هادنته بكلام في السياسة، يتأرجح بين الخطإ والصواب، قبل أن أعود إلى مجلس عباس...)

تفرق الجمع بعد أن ركب الغويط سيارته وانطلق عائدا إلى منزله بالمدينة العملاقة، فاستسلم عباس للنوم بعد أن كشف عن وجه اليتيمتين يقبلهما قبلة حنان وعطف، وطلب من والدتهما ميمونة أن توقظه باكرا للذهاب إلى السوق. طلبت منه مرافقته هي وابنتيها، فوافق على الفور، فقد كان يفرح كلما رآهما تقفزان وتلعبان في مرح وحبور... قال لزوجته ميمونة:

"سيكون يوما جميلا في الخيمة بسوق الاثنين، سأجلب لهما ما يرغبان فيه من حلويات وفواكه، سنفطر بحول الله بالإسفنج والخبز الساخن وزيت الزيتون، ثم نتحول وقت الغذاء إلى خيمة السماك، وأشبعهما سمكا مقليا...

دمعت عينا ميمونة، وهي ترى في عينيه فرحة كبرى، لم يسبق أن رأتها من قبل. كان سعيدا جدا... رفعت كفيها إلى السماء وقالت: أسأل الله أن يفرحك

بحج مبرور كما تفرحني وتفرح ابنتي اليتيمتين. رد عباس: لا تقولي مثل هذا الكلام، هما الآن ابنتاي، لم تعودا يتيمتين... قالت: بارك الله لنا في عمرك، وزادك من فضله ونعيمه.

في الصباح كان الرداد يربط البغل قبل أن ينهض عباس وزوجته، وطرق عليهما الباب يأمرهما بالنهوض:

"أنوضوا خلاص راه النهار طلع، واش باقي شي نعاس حتى لدابا ؟"

نهضت ميمونة مسرعة، أيقظت الفتاتين الصغيرتين، ألبستهما ملابسهما بسرعة، كادتا تطيران فرحا بسماع رغبة والدتهما في اصطحابهما إلى السوق، فعادة ما كانت تتركهما مع جارتها "ختي فاطنة"... حمل الرداد الفتاتين الواحدة بعد الأخرى، أجلسهما وسط والديهما، ثم جلس في الأمام على عمود العربة وهو يمسك بالعنان ويهش بالسوط على البغل كي يخف المسير... طلب من الصغيرتين أن تذكراه باسمهما، فهو عادة ما ينسى أسماء أبنائه وبناته، فإن أراد المناداة على واحد منهم طاف على الأسماء كلها قبل أن يتذكر اسمه الحقيقي... قالت إحداهما: "عفاف"، وقالت الأخرى "رباب"... قال الرداد:

إذا جاء صاحب الأرجوحة اليوم إلى السوق فسآخذكما كي تلعباها حتى تكتفيا منها. فرحت الصغيرتان، وحولتا نظراتهما بين الرداد ووالدتهما، أدركتا موافقتها من خلال ابتسامتها العريضة... أما عباس فقال: دعهما قبل ذلك تستمتعان بما لذ وطاب من حلويات ومأكولات، فإني أخشى عليهما من الدوار

في الأرجوحة. أحس الرداد بانزعاج الفتاتين من كلام عباس الذي أقلقهما من حيث كان يريد إسعادهما، فقال: ... لكن اللعب لدى الصغار أولوية قد تفوق رغبتهم في الأكل والشرب، فكثيرا ما كنا نفضل اللعب على الأكل رغم صفير أمعائنا... سآخذهما يعني سآخذهما يا عباس. رد عباس: لك ما تريد أيها الشقي، هذا يوم البنات...يوم عفاف ورباب، لقد ملأتا علي حياتي بعد أن فضل ابني نبيل السكن في المدينة رفقة زوجته، وخطفت الموت ابنتي الكبرى،وشغلت الدراسة ابنتي الصغرى، لقد عوضني الله عنهم خيرا... سيكون يا رداد ويا ميمونة يوما جميلا واستثنائيا... ردت ميمونة: إن شاء الله...

والحق أن كل الأسواق في الآونة الأخيرة باتت في عين عباس ذات صبغة استثنائية، إذ بات يشعر أن كل سوق قد تكون الأخيرة في مشاويره عبر الأسواق، فكان يتسوق تسوق مودع، تماما كما كان يصلي صلاة مودع... كان يطوف على خيام جيرانه، فيستعيد شريط ذكرياته مع أناس قضوا نحبهم، وحل محلهم آخرون، إما من نسلهم و إما من الأغيار الذين اشتروا المكان... فالسوق كما يعلم الجميع أزمنة وأمكنة: أزمنة معروفة بيوم من أيام الأسبوع المتكررة، وأمكنة محددة لأصحابها، يتاجرون فيها، وقد يكترونها أو يبيعونها،

وذلك أخوف ما كان يخافه عباس... كان يخلو بميمونة فيُسرّ إليها بمخاوفه:

"قريبا يا ميمونة سأغادر هذه الدنيا... (تتفل ميمونة على صدرها في عنق ملابسها وهي تقول: برا الباس عليك)، لكن عباس يضيف: لا بد مما لا بد منه، سألقى والدي ووالدتي هناك، فبأي وجه سألقاهما يا ترى؟ لقد فرطت في الوصية يا ميمونة، لقد فرطت في الوصية ... ترد ميمونة بحنكتها المعهودة: فوق طاقتك لا تلام يا عباس. انس الأمر على قولة:" الله أكبر"، قم وتوضأ للصلاة، عسى الله أن يشفيك ويعافينا جميعا... ثم تحاول تلطيف الأجواء وتغيير حالة الحزن التي خيمت على المكان، فتقول لعباس ممازحة:

-"ايه أيها (الغديدير)، اشتقتَ إلى زوجتك الأولى، وتريد أن تتركني وحيدة... أعلم أنك تحبها أكثر مني، أليس كذلك؟

-رحمها الله، كانت زوجة صالحة صبورة، تحضن أولادها وتحرص على إرضاء الجميع، كل الأهالي في قبيلتنا بكوا غيبتها وفراقها، فقد شهدت جنازتها حضورا مهيبا، سار فيها الكبار والصغار، وتتابعت السيارات والشاحنات على مسافة طويلة حتى ظن الغرباء أنها جنازة رجل ثري. لقد كانت بالفعل أغنى الناس وفاء وصدقا وإخلاصا وحسن معاملة...

-رحمها الله يا عباس، أردت فقط أن أسلّيك، لكنني قلّبت عليك المواجع

-لا عليك يا ميمونة، فأنت هبة حباني بها الله في عز أزمتي، وابنتاك نعمة من المولى عز وجل. لن يخيبك الله أبدا...

تطرق ختي فاطنة باب المنزل المفتوح إيذانا بقدومها، ثم تلتحق بميمونة، ثم تصحبها إلى المنسج، تكملان ما تبقّى فيه من شغل، قبل جزّ حواشيه، وطي البطانية الملونة بصباغات صوف متنوعة، وأخذها يوم الثلاثاء إلى سوق "الثلاث" قصد بيعها... وتسأل ميمونة ختي فاطنة :

ترى هل نعيش من أجل الأسواق، أم تنعقد الأسواق من أجلنا؟

تتلفت ختي فاطنة يمينا وشمالا، وكأنها تستنكر هذا المنطق الغريب والسؤال المريب لميمونة... تدرك ميمونة حيرتها، فتقول:

"ما تديش عليا، راني عا تنخربق "

يدخل الرداد من الباب الكبير دون طرق، لكنه يتساعل إيذانا بالقدوم، يعرج على بيت المنسج كي يلقي السلام على من فيه، ثم يبارك لهن قرب انتهاء الأشغال ويعلق مازحا:

"قربتي تترفحي آ ميمونة، عطاتك ليام" (يضحكون)

ثم يلتحق بصديقه عباس في حجرته. كان يلاعب عفاف ورباب، ويحفزهما على القفز مثلما تفعل القطة الجميلة. كانتا في غاية السعادة...

جلس الرداد يحكي لصديقه ما شاهده بأم عينيه في المدشر المجاور، حيث عمدت النساء إلى إقامة طقوس "تاغنجة" وهي عادة دخيلة اعتقدت النساء

أنها تجلب الغيث، فكن يستمطرن بواسطة بقرة يتبعنها بالرقص والغناء، حتى إذا بالت استبشرن خيرا بالمطر. ثم يعلق الرداد :

ما هذا الهراء يا عباس؟ ألا ترى أن نسوة في المدشر المحاذي لبلدتنا قد تبعن البقرة حتى بالت ثم راثت وما هتن السحاب...؟(على ما قال الثنائي الهناوات رحمهما الله)

قال الفقيه أخ عباس : شر البلية ما يضحك، قبح الله الفراغ والدسائس والبدع... أنت لا تتغير أيها الرداد ، تأبى إلا أن تردد نفس الترهات، لقد باتت "تاغنجة " شيئا من الماضي...

الرداد: نحن نتسلى والسلام،" الله يخلينا في صباغتنا"

يضحك عباس وهو يتهكم على صديقه: عن أية صباغة تتحدث؟ فأنت تتلون كالحرباء، ولسانك سهم لا يخطئ أحدا...

الرداد: لو جلت الأسواق بأسرها، لن تجد مثلي يا عباس

عباس: الصباغة الوحيدة التي تعجبني فيك هي ثقتك بنفسك، إلا أنك ترخي لثقتك العنان حتى تمد خرافك لسانها لتلتهم زرع الجيران ...

الفقيه: عليك بلجم ذلك اللسان أيها الرداد، فلا يوقع الناس في النار غير حصائد ألسنتهم... الغريب أن كثيرين أمثالك يدعون بدعاء: الله يخلينا في

صباغتنا... وكأن صباغتهم صافية ذات بريق ولمعان، وكأنها تثلج صدر كل حالم ولهان... صباغتنا جميعا كلون الزفت، نسأل الله أن يشملنا بعفوه ورحمته...

يضحك عباس وهو يقول: ما يضحكني هو صباغة مقر جماعتنا القروية، يصبغونها كل عام، ثم لا تلبث الصباغة أن تتقشر مثل سمكة سردين يفركها "بائع الحوت"... يضعون الصباغة على الصباغة كوضع أحمر الشفاه على الخنب.

الفقيه: كلما سألوا رئيس الجماعة عن منجزاته، بدأ بصباغة مقر الجماعة، فهو يعتبرها وجهنا قدام زوارنا من الجماعات الأخرى...

عباس: لكل واحد منا صباغته، فكثير من الناس يصبغون الآخرين بلا دهان أو ألوان، سلاحهم الكلام واللسان...

كلما جلست (أنا السارد) إلى هؤلاء البدو البسطاء، تشدني إليهم مثل هذا الحوار البسيط والممتع في آن واحد، فلا أتورع عن مضايقة راوي الرواة بالاسترسال في الجلوس والاستماع.

وأنا الآن على وشك إنهاء حكايات عباس مع الأسواق، يتملكني شعور بالاقتراب من الاغتراب، سوف أترك الأسواق وأعود إلى بيتي، وسأجدني أحول نظراتي بين أهلي، يستفرد كل واحد منهم بهاتفه الجوال، يستغرق ذلك جل الوقت أو كله، وأحول نظراتي في المقاهي بين أناس يجالسون بعضهم

ويتحدثون عبر هواتفهم إلى أناس مفترضين... وأحول نظراتي في الحافلة أو القطار أو الحديقة أو أي مكان، فلا أرى غير ما رأيت... وسأحول وجهتي إلى عزلتي في الحديقة مع كتاب، يجحدني المارة بعيون مستغربة، وتعاتبني عيناي كلما تعبت...

ماتت حمارة الرداد المصبوغة، بعد سنوات من العذاب ، إذ رفض إعادة بيعها من جديد، واعتبر عودتها بتلك الطريقة إصرارا على الوفاء لعِشرة سنوات... فاحتفظ بها ، تحمل أثقاله إلى أمكنة لم يكن بالغها إلا بشق الانفس، وتحمله على ظهرها كلما كان الحمل خفيفا، وله فيها جمال حين يريح وحين يسرح... ولعل تكاثر الصباغات في الحمير والبهائم والدواجن والعمارات والإدارات والوجوه والرؤوس وغيرها، كان يخفف عنه وطأة الإحساس بالغبن والخديعة... نزل خبر وفاة الأستاذ الغويط على الأهالي في القرية كالصاعقة، فقد كان سندهم المعنوي الكبير، وعينهم المفتوحة على المدينة الغامضة، يشرح لهم كل ما جد واستعصى، ويجالسهم بكل تواضع وسخاء... ركب الرجال الحافلة، وراحوا يودعون صديقهم العزيز إلى مثواه الأخير. دمعت عيون الكثيرين، وجثا عباس أمام القبر على ركبتيه باكيا منتحبا، تنزل دموعه ساخنة على تربة القبر فتغور بداخلها... أمسكه الرداد من ذراعه وساعده على الوقوف، ثم أقفل الجميع عائدين مودعين، بينما كان عباس يشير إلى القبور ويقول بصوت عال:

"هذا هو المكان الذي لا يقبل الصباغة أبدا... ارقد يا صديقي بسلام، وأبلغ أحبابنا منا السلام..."

أما الرداد، فظل واجما طول الطريق... المدينة بالنسبة إليه غول كبير، تزرع الخوف في أوصاله، وتخرس لسانه إلى حين...

عاد نبيل وزوجته لزيارة والده بعد شهور، كانت نبيلة حاملا في شهرها التاسع، طلب عباس من زوجته ميمونة ألا ترافقه إلى الأسواق وأن تعتني بزوجة ابنه، فهي في حالة صعبة. فكان يرتاد الأسواق منفردا... ورفض أن تسافر نبيلة صحبة زوجها قبل أن تضع حملها. وافق نبيل وسافر على أمل العودة فور الوضع.

اجتهدت ميمونة في جلب كل ما يلزم أثناء الوضع، وأخبرت القابلة أن تكون على استعداد في أية لحظة. اشترت ثوبا جديدا، وملابس للمولود، ومواد غذائية، وحرصت على شراء ديك بلدي أحمر. أما عباس فقد أومأ إلى خروف وسط الزريبة، وقرر أن يكون عقيقة حفيده...

هكذا عاش عباس طول حياته كريما سخيا ودودا، يحبه الجميع، يعرف آناء المواسم والفصول والمنازل الفلاحية، يضبطها بخبرة السنين، خدوما يقضي حوائج الناس، ينعت للتائهين في الأسواق الأماكن غير المعروفة، مكان تجار القفف وتجار السمن وزيت الزيتون ومكان تجار العنب المجفف وغيرها، ومكان اللحامين ومكان البزازين وغيرهم... وباغتته نوبة قلبية وهو في ساحة "الجوطية" ، حيث اختلط عليه كل شيء، وأتلف ما كان بذاكرته من نظام وانسجام. رفض الذهاب إلى المستشفى، نقلوه إلى منزله بعد أن استرجع

أنفاسه. ساد المنزل صمت رهيب، و سُمع نحيب يتيمتين صغيرتين عز عليهما أن يعود كافلهما مُسندا على سواعد رجلين، فقد كانتا تنتظران عودته وكواغد الفانيد الملون في جيبه، والابتسامة بادية على محياه. حتى الكلاب لم تنبح هذه المرة لقدوم الغرباء... تمدد عباس في فراشه المعتاد بمساعدة الرجلين وزوجته ميمونة، وحضر أخوه الفقيه وصديقه الرداد على عجل بعد سماع الخبر. كانت ميمونة موزعة حينذاك بين غرفتين، غرفة زوجها العائد في وضع حرج، وغرفة نبيلة التي فاجأها المخاض منذ ساعة... كانت المسكينة تنتقل من غرفة إلى غرفة، و"ختي فاطنة" تهدئ من روعها وتحاول تبديد مخاوفها، وتحثها على الصمود... تضببت الرؤية أمام عباس ، كان يحاول أن يقول شيئا، لم يتبيّن منه الفقيه إلا اسم ابنه "نب...يل"... و"الخيـ...مة"...، سمع عباس صرخة حفيده وهو يتنفس الحياة لأول مرة في الغرفة المجاورة، ثم زغرودة فرح مخنوقة، ابتسم وهو يتلقن الشهادتين من أخيه الفقيه، قبل أن يسلم الروح إلى بارئها وفي قلبه وَجَل على مصير الخيمة...

مثل هذه التفاصيل هي ما يشدني شدا إلى السرد، ومع ذلك أتهيب أن يلقبني أحدهم بالكاتب، وأتهيب أكثر أن أُنسب إلى فصيل الشعراء، فالكاتب أو الشاعر هو الحرفي الوحيد الذي لا يضمن أن ينتج غدا مثل أو أفضل مما أنتجه بالأمس... ماذا لو أذّن مؤذن أيها الشعراء إنكم لسارقون، وأذن مؤذن أيها التابعون إنكم لغاوون، فكيف أقوى على الرد بالقول: "إنْ أسرقْ فقد سرق الكتاب والشعراء من قبلي... " وهل يسرق المتنبي أو المعري مثلا؟ ألم يقل أحدهم بأن الأدب متناص؟ لا تحدثني عن الفرق بين التلاصّ والتناص الآن... ألا يعد ما أفعله بالكتابة صباغة للنصوص؟ أيها القراء الأعزاء، احذروا شراء كتبي، فلعلها تعرف مكانها داخل رفوف خزاناتكم، كما عرفت حمارة الرداد مكانها في الإسطبل... وفوق هذا وذاك، هل أصف في كتاباتي غير ما تعيشون؟ دعوكم من هذا "المونولوغ" المؤرق، فقد كاد مرارا ينسف علاقتي بالكتابة، ولْنتابع حكاية عباس...

elayachitabit@hotmail.com